مجموعة
قصصية

طفيليات

أحمد جمال الدين رمضان

أطلانتس للنشر والتوزيع

طفيليات

"مجموعة قصصية"

أحمد جمال الدين رمضان

دار أطلانتس
أطلانتس للنشر والتوزيع

اسم الكتاب: طفيليات

النوع: مجموعة قصصية

تأليف: أحمدجمال الدين

تصميم الغلاف: زياد حمدى

التدقيق اللغوى: بسنت إيهاب

التنسيق الداخلى: بدر صبحي

رقم الإيداع: 2023/15218

الرقم الدولي : 978-977-86795-8-8

دار أطلانتس للنشر والتوزيع

مديرة الدار : آيه رمضان حجازي

01280067289

daratlants@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة الناشر©

وأى اقتباس، أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية، يُعرض صاحبه للمساءلة القانونية، أما الحقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير .

الفهرس

طفيليات 5

الأستاذ بدوي 12

صدفة 18

الحياة ليست عادلة 28

البحيرة 35

شهرة 41

الزنزانة 47

العالم..... 59

شبح..... 65

صديق قديم..... 78

مصادفة 84

انتحار 90

عقاب 101

فرحات 120

خوف 131

موهبة 137

طفيليات

اللعينة تحاول استغلاله ..

لن أقف مكتوف الأيدي وأنا أراه يتعرض للخداع بتلك الصورة ..

ما فائدة الصداقة إن لم تتدخل وتمد يد المساعدة وقت الشدة لصديقك، وتعينه على رؤية الحقيقة بأي ثمنٍ ..

أعرفه منذ فترةٍ طويلة، كنا زملاءًا في المدرسة الثانوية، لم نكن أصدقاءًا في الواقع، فقد كان لكلٍ منا وقتها هوايات وشلة أصدقاء مختلفة، وطباع متباينة أيضًا .. تفرقت بنا السبل بعد المدرسة ولم أرهُ لسنواتٍ.. لنعود ونعمل في مؤسسةٍ واحدة، بل وفي مكتبٍ واحد ..

عادل طيب القلب، ولا تعرف نفسه الخبث أو الخداع، لا يخفي ما في قلبه ويهوى الصراحة، عملة نادرة حقًا في زماننا الحالي، كما أنه خجولٌ للغاية، ربما لهذا لم يتزوج حتى الآن .. يتمتع بكرمٍ شديدٍ أيضًا ويخجل من رفض أي طلب للآخرين، مما يدفعهم لاستغلاله في كثيرٍ من الأحيان ..

حذرته مرارًا .. يلتزم بنصائحي فيتغير سلوكه لأيامٍ، يصبح أكثر حرصًا مع الناس وحذرًا منهم، ثم يعود لطبيعته سريعًا، وهو ما يغيظني ..

لكني لم أتوقف عن نصحه .. بل واضطررت للتدخل عدة مراتٍ بنفسي عندما رأيته يتعرض للخداع .. ودفعت ثمن ذلك

أنقذته من مرعي- عامل البوفيه-في أيام عمله الأولى هنا، والذي كان يستغل سذاجته، فيغالط في حساب المشروبات ويضيف كثيرًا إلى فاتورة

صديقي دون وجه حق .. بل يستخدم بنًا رخيصًا بدلاً من البن الغالي الذي يخصصه لباقي الموظفين ..

وتدخلت في اللحظات الأخيرة بعد أن كاد زميلنا مسعد يقنعه بشراء سيارته المستعملة، والتي أعرف أن بها كثيرًا من العيوب كما اعترف لي بنفسه من قبل .. فخسرتُ صداقة مسعد

بل وتدخلت ضد مديرنا الجائر الذي كاد يتسبب بخصمٍ كبيرٍ لصديقي بسبب خطأ في الحسابات اكتشفته الإدارة، وهو الخطأ الذي ارتكبه في الواقع موظف زميل في المكتب يمت بصلة قرابة بعيدة للمدير، لكنه ألقى باللوم على صديقي مستغلاً سذاجته وتوقيعه على بعض ملفات العمل دون قراءة متأنية، فهددتُ بفضح الأمر، وهذا ما دفع المدير للتراجع .. وأكسبني عداوته

حتى أني أنقذته من سمسار كاد يقنعه بشراء شقة في منطقة نائية بسعرٍ مبالغ .. وعندما علم السمسار بالأمر، تربص بي وكاد يضربني بعد أن تسببت في خسارته لصفقةٍ كبيرة

فكرت مرارًا في التخلي عنه، خاصة أن تدخلي لحمايته يسبب لي أحيانًا كثيرًا من المشاكل مع الآخرين وبعضهم من المقربين مني .. لكني كنت في النهاية أتراجع بحكم الصداقة

طفلٌ ساذجٌ هو، يحتاج إلى حمايةٍ طوال الوقت يستحيل أن أوفرها، ولا أمل أن ينضج بما فيه الكفاية ليصد مطامع الآخرين أو يكشف خداعهم ..

والطامعين حوله عددهم يتزايد ..

طفيلياتٌ هم ولا هدف لهم سوى استنزافه بأي طريقة ..

لكن بوجهٍ عام، سارت الأمور في العمل على ما يرام بفضل تدخلي .. إلى أن تفاجأنا ذلك اليوم بقرار تعيين موظفة جديدة في المكتب ..

منذ أول لحظةٍ قابلتها، أدركت أن رياح التغيير ستعصف بالمكتب

جميلةٌ هي، وخفيفة الظل، لا أنكر أنها أشاعت جو من المرح داخل المكان سريعًا .. وأني حاولت لفت انتباهها بكل الطرق .. لكنها انجذبت إليه وحده،

مع مرور الوقت بدأ يستسلم لها .. وأنا أرقب ذلك بغيظ

وتدريجيًا بدأت ترهقه بمطالبها كما توقعت، بعد أن لمست ضعف شخصيته ..

مطالب صغيرة في البداية لم يعترض عليها .. كأن يؤدي بعض المهام الخارجية الشاقة الخاصة بالعمل نيابةً عنها، لأنها لا تملك سيارة .. أو يتولى مسؤولية حفظ عددٍ من الملفات الهامة بدلاً منها لأن خزانته أكبر، رغم أن ذلك قد يعرضه للمساءلة في حال ضياع أي منها .. أو التعامل مع بعض العملاء كثيري المطالب أو شديدي العصبية لنقص خبرتها في هذا الصدد

ثم بدأت مطالبها تزداد .. وتخرج عن نطاق العمل

بات يصطحبها لتناول الإفطار في ذلك المطعم الراقي الذي تعشقه بجوار مقر عملنا كل يوم، رغم أنه لا يتناول الإفطار عادة، وبالطبع يتولى دفع الحساب .. كما يتولى بكرمٍ دفع حساب المشروبات الخاصة بها من بوفيه المكتب آخر الشهر .. تستعير هاتفه لإجراء بعض المكالمات أحيانًا بحجة أن بطارية هاتفها تنفد سريعًا .. وعندما ترتكب أحد الأخطاء ويكتشف مديرنا الأمر، يتطوع لإدعاء المسؤولية حتى لا تخسر عملها الجديد .. بالإضافة إلى مغادرتها المكتب لفتراتٍ قصيرة بحجج مختلفة، فيقوم بالتغطية على غيابها المتكرر، معرضًا نفسه للمجازاة في حال افتضاح الأمر ..

لم أكن أهتم بأي حالٍ، ولم أتدخل وأنا أراها تُحكم الحصار حوله ..

لكن الطامة الكبرى كانت عندما بدأ يمر عليها كل يوم لاصطحابها إلى العمل، مما يتسبب في تأخره، حيث تقطن في إحدى المدن الجديدة البعيدة عن العاصمة .. وزاد الأمر سوءًا بعد أن بدأت تغادر العمل كل يومٍ مبكرًا بحجة الاعتناء بأمها المريضة، فيتولى طوعًا مراجعة ملفات العمل الخاصة بها، وهو ما يدفعه للتأخر والبقاء كل يوم في المكتب لعدة ساعاتٍ إضافية بعد انصراف الموظفين لإنجاز العمل المطلوب ..

كان لا بد أن أتدخل وقتها .. لا يمكن أن أسكت عن استغلالها له بتلك الصورة

خاصةً بعد أن ارتكب خطأ جسيم أثناء مراجعة أحد الملفات الخاصة بها نتيجة إرهاقه الشديد، ليتم إحالته للتحقيق وخصم جزء كبير من راتبه بسبب ذلك، بل وهُدد بالفصل عن العمل، دون أن تتدخل وكأن الأمر لا يعنيها..

حاولتُ تحذيره .. انفعلت عليه ذلك اليوم فاتهمني لأول مرةٍ بالغيرة منه لأنها فضلته علي .. وهو ما أغضبني وصدمني حقًا

ذلك الساذج .. طفح الكيل حقًا .. خاصةً بعد أن علمت أنه ينوي الارتباط بها رسميًا، بل وشراء شقةٍ في المدينة الجديدة التي تقطن بها حتى يكون بجوارها طوال الوقت

لا يمكن أن أتركه يقع فريسةً سهلة بين براثن تلك المخادعة ..

خاصةً أني لمحتها من قبل أثناء أحد مهامي الخارجية وهي تتنزه بصحبة شخصٍ آخر، ويتبادلان الضحك بألفة كبيرة بعد انصرافها من العمل مبكرًا ذلك اليوم .. حبيبها ربما، لهذا تستأذن كثيرًا من العمل لتلتقيه

قررت استكشاف الأمر على أي حالٍ .. تحصلت على عنوان منزلها من ملف العمل، سألت عنها فعلمت أنها لا تقطن مع والدتها المريضة كما تدعي، بل استقرت مع أختها الكبرى بعد تعيينها، ولا تعود لزيارة والدتها في القرية التي تنتمي إليها إلا قليلاً ..

كما علمت أنها مرتبطة عاطفيًا بابن عمها المعدم منذ عدة أشهر-كما أخبرتني زوجة حارس البناية التي تقطنها- .. وأنه ينوي التقدم إليها قريبًا

كنت أعلم أنها مخادعة من البداية .. وتيقنتُ من الأمر

تملكتني الحيرة رغم ذلك ..

كيف يمكن أن أبلغ صديقي الأمر دون أن يتهمني بالغيرة، ويرفض تصديق كلامي بالتالي ..

أعياني التفكير، لم أجد بُدًا في النهاية من مواجهته مباشرةً بكل تلك الحقائق، كاد الأمر يتسبب بشجارٍ بيننا لأول مرة بعد أن أحتد عليَّ .. لم أفقد أعصابي وتلقيت إهاناته بصبرٍ .. وضعت خطة لكشف خداعها .. في اليوم التالي أقنعته بطلب إجراء مكالمة من هاتفها بحجة سرقة هاتفه، وعندما فعل لم تعترض، دخلت إلى المكتب في تلك اللحظة لأخبرها أن المدير يستدعيها .. وبمجرد أن خرجت حتى قام بالعبث في هاتفها، فهالهُ ما رأى، وتأكد من علاقتها بابن عمها .. كما زار أختها بنفسه للتأكد من حقيقة مرض والدتها

كانت الصدمة كبيرة عليه حقًا ..

ولعدة أيامٍ رأيته يذوي ويكاد يفقد اتزانه .. لم أتخيله ضعيفًا إلى هذا الحد، وشعرت بالشفقة نحوه ..

ثم بدأ يستعيد ذاته تدريجيًا .. خاصة بعد أن واجهها بالأمر، فلم تنكر، وأدعت أنه قام بمساعدتها طواعيةً ولم تجبره على ذلك، كما لم تصرح

بأي حالٍ طوال فترة علاقته بها بأنها تبادله المشاعر وبالتالي لم تخدعه وهذا ما صدمه كثيرًا.. قبل أن تطلب الانتقال إلى مكتبٍ آخر بعدها بعدة أيام ..

لفترةٍ لم يعد كما كان حقًا ..

ثم بدأ يضمد جراحه ببطء ..

أقسم ألا يتعرض للخداع مرة أخرى، وألا يسمح لأحدٍ باستغلاله مجددًا .. معتذرًا إليَّ عن كل إهاناته السابقة ..

تقبلت اعتذاره برحابة صدرٍ رغم قسوة اتهاماته السابقة .. لا يمكنني أن أخذله .. ما الذي سيفعله بدوني على أي حال وسط تلك الغابة من الطامعين به؟ ..

في الأيام التالية بات بالفعل أكثر حرصًا مع الآخرين .. محاذرًا لخداعهم، وهو ما أسعدني ..

يمكنني الآن أن أطمئن عليه قليلاً ..

وعاد صديقي ليغادر العمل في موعد انصراف الموظفين، ليقوم بتوصيلي بسيارته كما اعتاد، ويمر عليَّ صباحًا في طريقه للعمل، فيرحمني من زحام المواصلات التي عانيت منها منذ تعرف على تلك الحمقاء المخادعة ..

وقريبا سيتزوج بأختي الكبرى التي عرفته عليها بعد أن كاد يفوتها قطار الزواج .. لا أثق في أحد غيرها لحمايته على أي حال ..

وربما يشاركني ذلك المشروع الذي طالما حلمت به بعد أن أقنعته بجدواه رغم تكلفته العالية، خاصةً أنه أفضل استثمار لأمواله التي لا تتوقف تلك الطفيليات البشرية اللعينة حوله عن الطمع بها!

الأستاذ بدوي

أثناء اندماج الأستاذ بدوي في شرح الدرس واستغراقه في حل بعض المسائل للطلاب على السبورة بصوتٍ عالٍ كعادته، تفاجأ بأحد الطلاب وقد استلقى بهدوء على الطاولة بعد أن غلبه النوم .. لم ينتبه للأمر إلا متأخرًا كما يبدو لأن الطالب كان يغط في نومٍ عميق .. توقف عن الشرح على الفور .. انتابه غضبٌ لم يستطع دفعه أو كبح جماحه .. غضبٌ ظهر على ملامح وجهه بوضوح وقرأه الطلاب سريعًا ليسود الصف سكونٌ تام .. اقترب الأستاذ بدوي من الطالب ببطءٍ وهو يسير على أطراف أصابعه بحذرٍ مشيرًا إلى باقي طلاب الصف بالتزام الصمت .. تطلع الطلاب نحو زميلهم الغائب عن الوعي والكارثة التي تكاد تحيق به بشفقة .. أستاذ بدوي رغم المعروف عن طيبته الشديدة إلا أنه يتحول إلى شخصٍ مختلف بمجرد أن تجد العصا طريقها إلى يديه ويفكر في عقاب طالب .. يدركون ذلك الأمر تمام الإدراك بالخبرة، وكثير من الطلاب تعرضوا لثورة غضبه من قبل وليس لدى أحد منهم استعداد بأي حال لخوض تلك التجربة الأليمة مرة أخرى .. ترقب حَذِر ساد الصف بينما الأستاذ بدوي يقف خلف الطالب تمامًا .. انتظر لثوانٍ كاظمًا غيظه لعل الطالب يستشعر السكون المفاجئ من حوله فينتبه ولكنه لم يفعل .. تأكد الآن أنه يسبح في بحور عوالم أخرى بعيدًا عن الصف وحصته الدراسية .. رفع كتاب الرياضيات الثقيل الذي كان يستخدمه منذ ثوانٍ قليلة في الشرح ليهوى به على ظهر الطالب .. انتفض الولد فزعًا .. للبرهة الأولى ظن بلا وعي أن أحد زملائه قام بالأمر ليوقظه، فاعتدل في مقعده على الفور وهو يتطلع بشكلٍ آليٍّ تام تجاه السبورة .. لكن الأستاذ بدوي لم يكن هناك .. التفت إلى زميله الجالس بجانبه، ثم بشكل غريزيٍّ تام نظر خلفه لتصطدم عيناه بابتسامة الأستاذ المقتضبة .. سرى في جسده للوهلة الأولى رجفة سريعة وكأنه

تعرض فجأة لتيار كهربائي قوي .. فغر فاه فلم يستطع أن يتكلم .. أمسكه الأستاذ بدوي بإحكام من أذنه ليسحبه نحو مقدمة الفصل .. بحث في حقيبته عن العصا .. عادةً لا يحب استخدامها كثيرًا ولكنه مجبرٌ على استعمالها الآن .. على الأقل ليستعيد بعضًا من كرامته المفقودة أمام الطلاب

ولكنه لم يجد العصا .. سادت همهمات بين الطلاب وهو يقلب في حقيبته مواصلاً البحث عنها .. ارتفعت الهمهمات بشكلٍ ملحوظ فرفع الأستاذ بدوي رأسه واعتدل مواجهًا الصف ليلتزم الجميع الصمت مجددًا .. أين وضعها؟.. انتابه الغضب أكثر .. هؤلاء الملاعين الصغار .. ألا يكفيهم أنه يقف على قدميه من بداية الحصة ليشرح الدرس رغم آلام الانزلاق الغضروفي التي يعانى بقسوة منها .. منذ دلف إلى الصف وهو يلزم جانب السبورة يكتب المسائل ثم يتبعها مباشرةً بخطوات الحل والشرح دون توقف حتى ليلتقط أنفاسه اللاهثة .. اصطدمت يده بعلبة الدواء .. أزاحها جانبًا بغضبٍ .. الدواء اللعين الذي وصفه طبيب التأمين الصحى ليُسكن آلام الظهر لديه بلا فائدة .. نظر للطالب الذي يرتجف بجانبه وهو يترقب أقل حركة من أستاذه .. فكر لبرهة أن يسامحه .. ثم هز رأسه طاردًا ذلك الخاطر السخيف على الفور،

طالبٌ مهملٌ بالتأكيد لا يستحق الرحمة .. وربما نام متأخرًا بعد أن قضى ليلته أمام التلفاز، أو في اللعب مع أقرانه لوقتٍ متأخر .. زفر أنفاسه بضيقٍ .. وقعت يده على العصا أخيرًا .. تشبث بها .. أخرجها بسرعة .. ما إن رآى الصبي العصا تلوح في يد أستاذه حتى انكمش أكثر .. نظر إليه الأستاذ بدوي وقد أطرق الولد إلى الأرض ورعشة واضحة تسري في جسده .. للحظةٍ فكر أن يسامح الصبى مجددًا، ولكن أن ينام ولدٌ في حصته جريمة لا تغتفر، وإهانة لا يتقبلها أو يمكن له أن يستسيغها بسهولة .. وربما يفقد هيبته أمام الطلاب لاحقًا إن أعفاه حقًا من العقاب .. طرد فكرة

السماح إذن من رأسه للأبد .. لوح بالعصا في الهواء فهربت الدماء من وجه الصبي والتزم باقى الطلاب الصمت الحَذِر .. أمسك بيد الصبي الخائف ورفعها أمامه .. ثم رفع العصا عاليًا بعد أن أحكم قبضته عليها .. وهوى بها بقوةٍ ..

بمجرد أن رن الجرس معلنًا انتهاء اليوم الدراسي حتى اندفع الطلاب خارجًا.. لملم الأستاذ بدوي كتبه وأوراقه .. رصها في حقيبته سريعًا... توجه إلى غرفة الوكيل للتوقيع في دفتر الانصراف كالعادة .. مشى مسرعًا وهو يشاهد اندفاع الطلاب بقوةٍ عبر بوابة المدرسة المفتوحة وكأنهم يفرون من وباء فتاك .. وصل متعبًا، فألقى التحية على الوكيل .. توجه للتوقيع ليتفاجأ بأن دفاتر الحضور والانصراف غير موجودة في مكانها المعتاد .. أخبره أحد زملاؤه ممن سبقوه أن مدير المدرسة قرر عقد اجتماع عاجل للمدرسين داخل مكتبه ..

«اجتماع آخر! » .. قالها بصوتٍ عالٍ في حنق .. تطلع لساعته .. يا له من يوم .. أقل من ساعة على موعد خروج أولاده من المدرسة والمسافة طويلة إلى هناك .. تنهد في ضيقٍ .. حاول أن يجد حجة ليفلت بها فيخرج مبكرًا لكن محاولته باءت بالفشل .. جلس وهو يتميز غيظًا... اجتماع آخر ممل يحكى فيه المدير عن خطط المدرسة وسياسات التطوير المرتقبة .. يعلم أنها اجتماعات مفروضة على الجميع حتى على المدير نفسه وفقًا لأوامر إدارة المنطقة .. اجتماعات صورية تقليدية لا هدف منها سوى ملء الأوراق وإثبات حالة .. يتكلم المدير عن آخر التوجهات وخطط الإدارة التعليمية التي لا تناسب طلابه بأي حال .. ويستفيض في شرح إنجازات تعليمية لا يشعر بها أحد على أرض الواقع .. هز رأسه بحنق، مضيعة للوقت تلك اللقاءات وجهد لا طائل منه .. جلس قليلاً يحاول التقاط

أنفاسه .. وعندما بدأ توافد المعلمين لم يجد مفرًا من التوجه معهم إلى حجرة الاجتماعات ..

تأخر المدير كعادته .. وعندما يصل لا يعتذر لأحد .. تبادل الحديث مع بعض المعلمين بجواره .. حالة من التذمر تسود بين الجميع بعد أنباء الاجتماع المفاجئ .. وصل المدير أخيرًا يصحبه ضيف ما يراه للمرة الأولى .. ربما أحد المشرفين من المنطقة التعليمية .. أخيرًا سيبدأ الاجتماع .. قالها الأستاذ بدوي لنفسه وهو يزفر أنفاسه بحرارة .. نظر في ساعته مرةً أخرى، نصف ساعة على موعد خروج الأولاد .. بدأ المدير كلمته وتابعه لثوانٍ .. ثم بدأ يفقد تركيزه تدريجيًا بمرور الدقائق الأولى .. نفس الهراء الذي يسمعه كل مرة .. كلام نظري لا يمكن تطبيقه على أرض الواقع ونظريات لا تتناسب مع قدرات طلابه بالتأكيد .. بدأ المدير القراءة من ورقة أمامه .. ليته يعفي نفسه من جهد بلا طائل و يقوم بتوزيع نسخ من تلك الورقة على المعلمين ليقرأها كل منهم بنفسه في وقت يناسبه أكثر .. الجو حار والعدد كبير داخل القاعة .. وهدوء ثقيل الأنفاس يخيم على الجميع .. أخرج أحد كتبه خفيفة الوزن من حقيبته وبدأ يحركها بانتظام أمامه جالبًا لبعض الهواء .. اثنان من الزملاء بجانبه يتهامسان بسخرية .. يركز مع حديثهما العبثي لثوان ثم يتجاهلهما .. أحد زملائه خلفه يكتم ضحكة كادت أن تنطلق منه بصعوبة .. لم يلحظه المدير الذي يواصل القراءة وصوته يرج القاعة .. يبدو أن أحدهم ألقى نكتة عابرة، أو يسخر من المدير كالعادة .. يسكت المدير ليقلب الصفحة فيلتزم الجميع الصمت التام فجأة وهو يرفع رأسه، ويبدو على وجوههم الانتباه، ثم يواصل القراءة من ورقته فيطرق برأسه لتعود الهمهمات مجددًا .. يعاود النظر في ساعته .. عشر دقائق على موعد خروج أولاده .. يمكنهم الانتظار قليلاً في فناء المدرسة .. ولكن لديه مواعيد أخرى .. ما زال عليه التوجه للسوق لشراء احتياجات المنزل.. ثم الاستذكار لولديه بعد المدرسة .. و ..

المدير يسكت ليشرب من كوب الماء أمامه .. تململ على كرسيه قليلاً .. في المساء عليه أن يزور والده المريض للاطمئنان عليه .. لم يفعل منذ فترةٍ طويلة .. طلب منه آخر مرة أن يصطحب الأولاد معه لأنه يشتاق لرؤيتهم .. لو أنهوا واجبهم جيدًا اليوم - وهو يشك في ذلك- ربما يصطحبهم إلى هناك .. لاحظ ارتفاع ضغط الدم لدى والدته أيضًا في آخر زيارة .. عليه التأكد من تناولها للدواء بانتظامٍ .. زميله الجالس بجانبه يعبث بتليفونه المحمول .. بعض زملائه منهمكين تمامًا في تبادل الأحاديث الجانبية في غفلة عن المدير الذي يواصل التطلع لورقته وإلقاء كلمته بلا توقف .. غاص في مقعده أكثر .. واصل تحريك يده بقوة أكبر طلبًا للهواء .. موعد خروج أولاده الآن .. يتنهد بحرارةٍ .. يحاول أن ينتبه قليلاً مع كلمات المدير ولكنه يغيب سريعًا في دوامات عدم التركيز .. تذكر أنه لم يدفع فاتورة الماء والكهرباء .. يمكن أن يدفعها اليوم في طريقه للمنزل، فقط لو انفض الاجتماع مبكرًا قليلاً .. يصمت المدير لبرهةٍ .. ترتفع الرؤوس لتستطلع سبب السكون .. أحد الأوراق التي يقرأها وقعت على الأرض، فانحنى ليلتقطها، قبل أن يعود سريعًا ليواصل كلامه .. تهبط الرؤوس مرة أخرى لتعاود الاستكانة .. يعبث بساعته .. زفاف أحد أقاربه غدًا .. عليه أن يبتاع بذلة جديدة تحل محل الأخرى التي كادت أن تبلى .. ويشتري هدية لائقة أيضًا .. ربما يسأل زوجته أن تبتاع الهدية فهي أقدر منه بلا شك في تلك الأمور وتتمتع بذوقٍ عالٍ يعترف أنه لا يمتلكه .. ولكنها قد تختار هدية غالية .. مسرفةٌ هي للغاية .. سيحرص أن يكون معها من باب الاحتياط .. بدأ يحاول ترتيب الأمر مجددًا في ذهنه .. سيذهب إذن لاصطحاب أولاده بعد الاجتماع .. ثم إلى السوق .. لن يتأخر هناك .. سيشترى فقط بعض الأغراض الضرورية، وبعدها للبيت ثم إلى والديه .. ثم يذهب لشراء البذلة في المساء .. لا .. ربما يتأخر عند والديه .. سيشترى البذلة غدًا .. ولكن لا وقت لذلك .. تعب من تحريك الكتاب فأراح يده قليلاً .. ما زال عليه دفع فاتورة الكهرباء .. سيقوم بذلك غدًا بعد أن

يخرج من المدرسة .. ولكن لديه جدول حصص مزدحم في الغد .. هز رأسه في حيرة .. وما زال عليه تحضير الدروس .. انكمش في كرسيه أكثر .. تثاءب .. أحد زملائنة يلتقط صورة .. الكل يعتدل على الفور مبتسمًا عند لمعان ضوء التصوير .. ثم يعود الوجوم ليكسو الوجوه مرة أخرى.. سيقوم بتبديل بعض الحصص غدًا ليخرج مبكرًا .. لن يعترض الوكيل .. ولكن متى يشتري الهدية؟ .. فكر قليلاً .. ربما يُبقي الأولاد اليوم عند والديه مساءًا وينطلق مع زوجته لشراء البذلة والهدية ثم يعود لاصطحابهما .. تململ قليلاً في كرسيه .. ولكن أولاده مزعجين .. يعرفهم جيدًا .. لا .. سيبقى معهم ويرسل زوجته .. عيناه تؤلمانه من الإضاءة السيئة داخل القاعة، يفركهما قليلاً .. المدير يواصل كلمته بهدوء .. يطرق برأسه يفكر في الأمر جيدًا .. فليمر على والديه بمفرده بعد توصيل الأولاد للبيت .. يمكنه بعدها دفع فاتورة الكهرباء .. وربما الخروج مع زوجته ليلاً إن اتسع وقته لشراء البذلة والهدية .. أو ربما .. و ..

كل ما يتذكره الأستاذ بدوي ذلك اليوم أنه عندما انتبه كان المدير هناك بجواره تمامًا..لا يدري كيف .. متجهمًا كعادته، ويبدو على وجهه المحتقن كل علامات الغضب التام!

صدفة

- على الطبيب النفسي الجيد أن يتناسى دوره التقليدي القديم كمتلقٍ سلبي للاعترافات، ويسعى وراء الحقيقة ليكتشفها بنفسه عندما تعجز الطرق التقليدية، حتى لو تطلب الأمر أن يتحرى عن مريضه .. وقد تلعب الصدفة دورًا هامًا في العلاج، هكذا قلتُ لصديقي الذي لم يبدُ عليه الاقتناع .. هز رأسه برفضٍ قائلاً:

- لديَّ عدة مآخذ على كلامك .. في البداية لا يعترف العلم بالصدفة كما تعرف بالطبع .. والطبيب الماهر هو من يصل بالتأكيد لحل أي مشكلة دون اللجوء إلى تلك الغيبيات ..

سكت قليلاً، ثم أردف:

- كما أؤمن أن العلاقة بين المريض والطبيب يجب أن تظل داخل جدران العيادة ولا تتجاوزها للخارج .. محاولة الطبيب التحري أو السؤال عن مريضه ربما تضعه في موقفٍ حرجٍ بالغ، وبخاصةً في مجتمعاتنا حيث النظرة السلبية للمريض النفسي ما زالت هي السائدة بين الناس .. أو ربما تؤدي لما هو أسوأ؛ حين يفقد المريض ثقته بالطبيب إذا اكتشف أنه يتلصص عليه ..

لم أعلق بكلمة .. كنت أتوقع ما قاله .. أعلم أن صديقي ينتمي للمدرسة القديمة ولهذا توقعت آراءه .. تنهدت في أسف .. سألته بهدوء:

- ولكن كيف للطبيب أن يتأكد إذا كان المريض يكذب أو يختلق بعض الأمور دون وعيٍ؟

ابتسم قائلاً بهدوءٍ: من الطبيعي أن يكذب المريض النفسي، وخاصةً في بداية جلساته مع الطبيب، أو ربما يخفي بعض الأمور إلى أن تبنى علاقة الثقة بصورة جيدة بينه وبين الطبيب .. لكن تلك المشكلة تختفي تدريجيًا مع توالي الجلسات عندما يشعر بقدرٍ أكبر من الأريحية في سرد مشاكله وما يمر به من مشاعر ..

لم أتكلم، اعتدل في كرسيه قبل أن يردف: وما الداعي بأي حالٍ لأن يكذب المريض على الطبيب بشكل متعمد طالما جاء بإرادته بحثًا عن العلاج .. حتى لو فعل ذلك، أو دون وعي اختلق بعض الأمور، يمكن للطبيب الجيد اكتشاف ذلك من خلال مؤشراتٍ معروفة مثل تعبيرات الوجه ولغة الجسم، أو الارتباك الواضح والتناقض في أقواله وغيرها من الأساليب

ساد الصمت بيننا للحظة، لم أقتنع بكلامه، و يبدو أنه أدرك ذلك بخبرته فهز كتفيه باستسلام دون أن يتكلم .. قلت لأحسم الأمر:

- دعني أحكي لك عن أحد الحالات التي تعاملت معها مؤخرًا، وأعترف أن الصدفة وحدها لعبت دوراً هامًا في علاجها .. وهي الحالة التي دفعتني حقًا لتغيير كثير من المفاهيم التي كنت أؤمن بها ..

دخل الغرفة مرتبكًا تبدو عليه علامات التوتر بوضوح .. ربما كانت أول زيارة للطبيب النفسي .. الخطوة الأولى تكون دومًا هي الأصعب، والعائق الأكبر الذي يفشل كثير من المرضى في تجاوزه نحو العلاج .. منحته بعض الوقت كي يستجمع شتات نفسه ويألف جو العيادة .. بعد التحية بدأت بسؤاله عدد من الأسئلة الروتينية المعتادة فأجابني عليها بثقة

واضحة، يبدو أنه تمالك نفسه سريعًا .. سألته بعد برهةٍ عن المشكلة التي يعاني منها، أو السبب الذي دفعه لزيارة الطبيب النفسي .. أطرق برأسه لثوان دون أن يتكلم .. لم أشأ أن أضغط عليه .. طلبت منه أن يسترخي على المقعد ففعل .. بعد دقيقة أخرى أطلق تنهيدةً حارة، قبل أن يتكلم بهدوء:

- في الواقع لست أنا من يعاني من مشكلة.. لكنها أمي .. وإن كنت وحدي أدفع الثمن ..

اعتدلت على مقعدي .. ليس هو المريض إذن كما توقعت، فلما تبدو عليه سيماء القلق والتوتر؟ فتحت دفتر ملاحظاتي، لم أشأ أن أوجه دفة الحديث لجهة معينة، تركته يتحدث بحرية دون أن أقاطعه .. ولمدة نصف ساعة استمعت له وهو يشرح حالته ..

ابنٌ وحيدٌ هو، أو هكذا وجد نفسه بعد أن توفي أخاه الأكبر في حادث مأساوي منذ سنوات قليلة .. حادثٌ شهير قرأت عنه في الصحف وقتها دون أن أولّيه أي اهتمام .. اقتحم بعض اللصوص متجرًا لسرقته وكان متواجدًا هناك بالمصادفة فأصابته طلقة قضت على حياته على الفور .. ويبدو أن حادث وفاة أخيه الأكبر كان بدايةً لمشكلته، أو مأساته الخاصة ..

تجربة الموت كان لها أثر كبير في نفس الأم .. تعرضت لصدمة لم تفق منها إلا بعد فترة طويلة .. صحيح أنها تمالكت نفسها بعد عدة أشهر لكنها لم تعد كالسابق .. حطم الحادث عديد من الثوابت لديها، وأورثها شعورًا بعدم الأمان والخوف طوال الوقت .. والأسوأ بدأت تُكرس كل حياتها لابنها الثاني، وبشكل مَرضي .. أضحت فجأة مهووسة بمتابعة كل تفاصيل حياته وبصورة لم يعتادها .. اهتماماته .. أحلامه .. دراسته .. أصدقائه .. بدأت تتقرب منه أكثر .. ربما ألقت باللوم على نفسها بعد وفاة ابنها الأكبر، رغم عدم مسئوليتها بالطبع عن الحادث، واعتبرت الأمر إهمالاً منها كأم

خاصة أنها هي التي دفعته للتوجه إلى ذلك المتجر بعينه يومها لشراء بعض الأغراض .. وكنوع من التعويض، أو الشعور المَرضي بالذنب، بدأت تحيط ابنها الثاني بعناية مضاعفة .. ومع مرور الوقت بدأت تُبسط سيطرتها التامة عليه، واستسلم هو لها .. خوفه وقلقه الشديدان أن تنتكس صحتها مرة أخرى دفعه للخضوع إليها تمامًا.. وربما كانت تلك غلطته التي لم يستشعر مدى فداحتها إلا لاحقًا ..

مع الأيام زادت عصبيتها، قلقها، وخوفها المَرضي عليه .. تدخلت تدريجيًا في كل أمور حياته، أعادت تنظيمها وفق إرادتها .. آراؤها لم تكن سوى توجيهات صارمة عليه أن يتبعها دون نقاش .. مع مرور الوقت بدأت تحرمه من أبسط حقوقه كشابٍ في سنه .. منعته من السهر ليلاً مع أصدقائه كما اعتاد بحجة خوفها عليه، بل وانتقدت عددًا منهم مما دفعه للانفصال عنهم بالفعل .. رفضت كل نشاط عنيف يقوم به، فحرمته من ممارسة رياضة الملاكمة التي يعشقها من صغره .. انتقلت إلى سكن جديد بجوار الكلية التي يدرس بها حتى لا يتعرض لمتاعب المواصلات ومخاطر الطريق، بل واختارت حيًا هادئًا بعيدًا عن الأحياء المزدحمة؛ رغبةً في الشعور بمزيد من الأمان .. واشترت له هاتف لتطمئن عليه كل ساعة طوال فترة تواجده بالخارج بعيدًا عنها ..

ربما يبدو الأمر هينًا، ولكن مع السنوات، وغياب التدخل النفسي المناسب لعلاج حالتها، زادت قبضتها عليه .. والحب الزائد قد يقتل أحيانًا .. وهو بدأ يستشعر أنها تقتل شخصيته بالفعل .. زادت هواجسها فباتت تخاف عليه من كل شئ، وتحتاط بشكلٍ مبالغ من أي مصدرٍ يمكن أن يشكل تهديدًا لسلامته .. عاملته كطفل صغير غير مؤهل لحماية نفسه، وأحاطته بعناية حديدية تركت آثارها السلبية عليه .. إذا مرض طافت به على الأطباء، بل وتبقى بجواره طوال فترة مرضه تلوم نفسها بشدة على إهمالها في رعايته .. وإذا تعرض لحادث طفيف منعته من الخروج لأيام

حتى بعد أن يتعافى .. منعته من تناول أي طعام بالخارج .. أما الرحلات فلم يعرفها طوال تلك السنوات معها .. وعندما حاول إقناعها ذات مرة بالسفر مع بعض أصدقائه إلى مدينة ساحلية قريبة، صارحته أنها لا تثق به، وتخشى أن ينخرط في مغامرة جنونية مع أصدقائه بعيدًا عن رقابتها فتخسره .. اختارت أصدقاءه الجُدد بنفسها، وفرضت رأيها على كل اختياراته الخاصة، بدءًا من الملابس التي يرتديها، ونهايةً باختيار نوع دراسته الجامعية .. باختصارٍ .. حولت حياته إلى سجن كبير يعجز عن الهرب من أسواره الخانقة ..

انتهت جلستي الأولى معه عند هذا الحد .. بدأت تتضح لي أسباب المشكلة وإن لم أحط بكل أبعادها بعد .. دونت ملاحظاتي وانطباعي الأول وطلبت منه تحديد موعدٍ ثانٍ قريب، وهذا ما فعله ..

في بداية الجلسة الثانية كان أكثر هدوءًا .. تكلم بصورة أعمق وأكثر تفصيلاً عن نفسه، طموحاته، أحلامه .. وعن معاناته بعد الحادث، والعزلة الإجبارية التي فرضتها عليه أمه .. بعد تخرجه من الجامعة تصور أن حياته ستتغير لكنها سارت إلى منحى أكثر روتينية .. تحصَّل على عمل بسهولة بفضل والدته؛ عمل مكتبي لا يتناسب مع أحلامه وتطلعاته لكنه يتوافق تمامًا مع رغباتها .. في العادة يبدأ عمله في الثامنة صباحًا، يسرع بعدها بالعودة إلى المنزل في الرابعة بعد نهاية الدوام مباشرة خوفًا من غضب والدته، وحتى لا يسبب لها القلق حال تأخره لأي سبب .. يتذكر أنه تأخر يومًا نتيجة لاجتماع طارئ اضطر معه لإغلاق هاتفه، وعند عودته للمنزل يومها تفاجأ بوالدته في حالة هلع شديدة حتى أنه اضطر للاستعانة بطبيب، ولم يكرر فعلته من وقتها .. بعد العودة من العمل يتناول طعامه، ثم يخرج ليلاً مع عدد من أصدقائه، أو لشراء بعض الأغراض معها .. ثم العودة للنوم مبكرًا، ليعاود الروتين نفسه في اليوم التالي .. بدأ يعبر عن آلامه بشكل أكبر .. تضخمت قائمة الممنوعات حتى أفسدت

كل متعة في حياته أو كادت .. سهره لوقت متأخر في الخارج .. مواعيد الخروج من المنزل .. شراء سيارة .. التدخين .. وبالطبع السفر للخارج بعد أن تخلى دون تفكير عن عقد عمل مميز طالما حلم به ..

اكتشف بعد مرور سنوات أنه ضحية لحصار لا سبيل للفرار منه .. وأنه فقد حريته وثقته بالنفس، وهويته كشخص مستقل قادر على اتخاذ قرارات تخص مستقبله .. خسر أحلامه وتنازل ببساطة عن طموحاته وتطلعاته السابقة .. تقلصت قائمة أصدقائه مع مرور السنوات حتى لم يعد بها سوى صديق أو اثنان .. يعمل في وظيفة لا يحبها دون أمل في تغييرها، ليفقد تمامًا حماسته ورغبته في العمل، ولم يعد يرى الحياة سوى بمنظار قاتم، والأسوأ .. اكتشف عجزه عن تحمل المسئولية والتخلص من القيود التي تحكم حريته، وعدم امتلاكه لتلك الإرادة اللازمة لتغيير وتيرة حياته التي تتجه به نحو حافة اليأس والجنون ..

في الجلسة التالية أفصح عن السبب الذي دفعه للجوء إلى الطبيب النفسي .. في الفترة الأخيرة وقع ضحية صراع عنيف يتزايد داخله بشكل لم يعتاده من قبل .. يريد أن يتمرد على سلطتها، لكن خوفه عليها في الوقت نفسه، وقلقه من عواقب الأمر يدفعه للتردد والإحجام عن الفكرة .. يرغب أن يستقل عنها، لكنه يدرك جيدًا أنه على الرغم من قسوتها وقوتها الظاهرية، إلا أنها هشة جدًا من الداخل وربما يقتلها الأمر .. قلقه عليها يدفعه للخضوع أكثر عكس رغبته .. يكاد يقع ضحية للجنون وسط جدران الحماية التي تزيدها أمه ارتفاعًا حوله كل يوم؛ جدران حماية وهمية لا تحميه لكنها تعوق حريته، وتستنزف حماسته .. وتمتص روحه يومًا عن يومٍ، وببطءٍ قاتل.

استمعت له بحرص طوال الجلسة .. طلب مني أن أساعده بالوقوف أمام أمه .. أعلم أنه يفتقد الثقة بالنفس، والجرأة على القيام بتلك الخطوة لكني وعدته بأن أساعده .. طلبت منه أن ألتقي بوالدته لكنه رفض الأمر تمامًا

وبانفعالٍ مفاجئٍ فور طرحه .. لم أره منفعلاً من قبل بتلك الصورة .. تخليت عن الفكرة رغم أن لقائي معها كان ليختصر بالتأكيد كثير من خطوات العلاج ..

لم يكن أمامي سوى الاعتماد عليه فقط عند وضع خطة العلاج .. حاولت أن أشرح له سبب مشاكله، وأعتمد على زيادة الدافعية والثقة بالنفس لديه لمواجهة مأساته الخاصة .. بدأ العلاج بشكل جيد، لكنه فجأة انقطع عن الحضور للجلسات .. غاب لعدة أسابيع، ثم تفاجأت به يعاود الحضور للعيادة مرة أخرى .. وعندما سألته أخبرني بارتباك واضح أن والدته بدأت تشك في خروجه المتكرر في أوقات منتظمة وتأخره لفترات طويلة .. طلبت منه أن يتواصل معي تليفونيًا في حالة عدم تمكنه من الحضور للجلسات .. عادةً لا أحبذ هذا الحل .. أفضّل أن أرى المريض وجهًا لوجهٍ لملاحظة كل انفعالاته الخاصة ولكن لم يكن لدي خيارًا آخر .. واظب على الحضور لعدة أسابيع .. اتصل بي مرتين، أحدهما في وقت متأخر .. تكلم بصوت هامس حتى أني لم أسمع أجزاءًا من حديثه .. في بعض الجلسات أيضًا لم يكن يمكث أكثر من عشر دقائق .. بل ويحضر في أيام مختلفة من الأسبوع، حتى لا تشك والدته في خروجه في يوم معين بصورة ثابتة .. بشكلٍ عام تواصلت الجلسات معه بانتظامٍ إلى حدٍ ما ..

لكن العلاج طال بشكلٍ غير معتاد، ولم أرَ أي نتائج تشير لتحسن حالته حتى بدأت أشك في قدرتي كطبيبٍ على علاجه .. حيرنى أمره .. هل اتبعت طرق خاطئة في التشخيص والعلاج أو لعلي أسأت فهم مشكلته؟ .. لم أجد إجابة حقًا .. وبدأت أسأل نفسي: ما الخطأ الذي ارتكبته كطبيبٍ؟ ولما لم تفلح كل طرق العلاج التي أتبعها معه؟

- أحيانًا العلاج يحتاج لوقت أطول من المعتاد .. خاصةً في حالة كتلك تعرض صاحبها ولسنوات عدة للكبت وقمع حريته من قبل والدته ..

- هذا ما ظننته في البداية .. حتى ذلك اليوم ..

كنت قد بدأت أتساءل عن مدى فائدة العلاج الذي أقدمه لمريضي طالما لا أشهد أي بوادر تحسن .. حاولت أن أطلب منه مقابلة والدته مرة أخرى لكنه رفض الأمر بحسمٍ دفعني لعدم التفكير في الموضوع مجددًا .. في الواقع كنت أخشى أن يؤذي نفسه؛ يأسه في التحسن ربما يؤدي به إلى انتكاسة تدفعه للتخلص من حياته .. أو الأسوأ .. التخلص من والدته، مصدر السلطة الذي لا يمكنه الفكاك منه .. خاصةً أنه بدأ يعاني من كوابيسٍ منتظمةٍ يرى فيها نفسه يتخلص من والدته بطرقٍ مختلفة ويشعر بالندم لذلك .. خشيت أيضًا أن يتوقف عن العلاج خوفًا من والدته، في الأسابيع الأخيرة لم يكن يحضر بانتظامٍ؛ يتخلف عن الحضور لفترات، ثم يعاود الحضور بانتظامٍ تام .. في الواقع .. بدأت أفقد الثقة بنفسي كمعالج على مداواته وذلك -كما تعرف- أسوأ شعور يمكن أن يمر به أي طبيب ..

حتى تلك الليلة .. كنت في طريقي لحضور حفل عيد ميلاد ابن أحد أصدقائي بصحبة زوجتي وابني الصغير عندما لمحته .. لحسن الحظ لم يراني .. كان يستعد لمغادرة ذلك المبنى الضخم فلم ينتبه إليَّ .. بالطبع أحتفظ بعنوانه في السجلات لديَّ لكني لم أتخيل أنه يقطن تلك البناية التي زرتها عدة مرات .. كان قد انقطع عن الحضور لأسبوعين مما أثار ريبتي وزاد من قلقي عليه .. خطرت لي فكرة جنونية، يمكنك أن تخمنها بسهولة بالطبع .. فكرت أن أقابل والدته .. أعرف مواعيد عمله وبالتالي يمكنني مقابلتها في وقتٍ لا يتواجد به في المنزل .. لكني تراجعت عن مقابلتها، على الأقل كطبيب نفسي، فالأمر يحتوي على مخاطرة ربما تؤدي إلى انتكاسة .. لكني لم أتراجع عن الفكرة بأكملها رغم ذلك .. قررت طلب المساعدة من صديقي، جارها في البناية، لعله يعمل على تقديمي إليها

بشكلٍ أو بآخر دون الإشارة بالطبع لمهنتي .. لم أفكر طويلاً، في الواقع لم أقدِّر وقتها مدى خطورة تلك الخطوة، ولكني قررتُ المغامرة على أي حال .. كل ما يتطلبه الأمر ألا تعرف هويتي الحقيقية وإلا انقلب السحر على الساحر كما يقولون .. عندما التقيت بصديقي تبادلت معه الحديث لدقائق، سألته بعفوية عن جاره، لم أشأ بالطبع أن أطلعه على الصورة بأكملها حفاظًا على سرية المريض .. لم يبدو أنه يتذكره للوهلة الأولى قبل أن يفعل لاحقًا معتذرًا بأن جاره انطوائي إلى حد بعيد، ولم يتبادل معه طوال السنوات الماضية سوى بضعة أحاديث عابرة وعلى فترات متباعدة نسبيًا فلم يتذكره بسهولة .. أخبرني أن جاره من أقدم السكان هنا، لكنه لا يمتلك أى معلومات إضافية عنه .. لم أهتم .. فلا أريد معلومات عنه أعرفها بالفعل .. اضطررت للكذب لأخبر صديقي أن الشاب تقدم لخطبة ابنة أحد أقاربي وأرغب في السؤال عنه، طالبًا منه عدم الإفصاح عن الأمر .. سألته بشكلٍ عفويٍّ عن والدته، تردد صديقي طويلاً قبل أن يقول:

- ولكني أعلم أنه يعيش وحيدًا .. والداه توفيا منذ فترة طويلة كما أتذكر

لوهلةٍ لم أستوعب كلامه، انشغل صديقي بالحفل بعدها .. بمجرد انتهاء الحفل طلب البواب والذي أكد أن والدته توفيت من فترة طويلة، ربما بعد أشهر قليلةٍ فقط من مأساة مصرع شقيقه الأكبر في ذلك الحادث الشهير .. وأنه يحيا وحيدًا منذ ذلك الوقت.

بالطبع لك أن تتخيل مدى شعوري وقتها، أدركت الآن فقط أبعاد المشكلة، وفشلي كطبيب .. وفاة شقيقه المأساوية وما تبعها بالتأكيد من فترة حزن، ثم وفاة والدته، خلق بداخله شعور بعدم الأمان والخوف، وهو ما تطور لاحقًا بشكلٍ مرضي .. ولأن عقله يرفض الاعتراف بعجزه عن مجابهة الحياة لذلك طور وسيلة لحمايته وإلقاء اللوم بعيدًا عنه .. الأم التي تحمي ابنها بشكل مفرط وتخلق حوله أسوارًا من العزلة تمنعه من الانغماس في الحياة والاختلاط بالناس .. شخصية غير موجودة اختلقها لتبرر عجزه

عن مجابهة الحياة بمفرده، و تتوافق أيضًا مع رفضه لحقيقة وفاة والدته، وخسارته لمصدر الأمان والدفء العائلي الوحيد بعد وفاة شقيقه الأكبر.

بالطبع كنت مصدومًا من نتائج اكتشافي، فشلت في الكشف عن أوهام مريضي طوال تلك الجلسات التي زارني فيها .. في الجلسات التالية معه تعاملت معه من منطلق ما اكتشفته من وقائع جديدة دون أن أواجهه بالطبع بحقيقة إدراكي لأوهامه .. أعترف أن العلاج كان صعبًا لكنه بدأ تدريجيًا يجني ثماره، حتى اعترف لي بعد ثمان جلسات تقريبًا بوفاة أمه، أو بالمعنى الأصح أدرك أخيرًا حقيقة وفاتها ليعترف أمام نفسه أولاً ثم أمامي بذلك .. لتبدأ مرحلة تعافيه من خوفه المرضي من الحياة، وقلقه من الاختلاط بالناس، وما زال يزورني بانتظامٍ إلى الآن لكن على فترات متباعدة، حتى أتأكد فقط من عدم تعرضه لأي انتكاسة مجددًا.

تطلعت لصديقي الذي كان يصغي إليَّ باهتمامٍ، أكملت بهدوء:

والآن هل فهمت ما أعنيه عندما قلت أن الصدفة تلعب أحيانًا دورًا مهمًا في العلاج؟ وأن على الطبيب أن يسعى أحيانًا وراء الحقيقة لاكتشافها بنفسه عندما تعجز كافة الطرق التقليدية.

الحياة ليست عادلةً

انتهى الممثل المساعد من آداء مشهده القصير .. تراجع بعدها خلف الكاميرات يرقب بطل العمل وهو يؤدي دوره .. هناك مشهد يجمعهما لاحقًا .. لذا عليه أن ينتظر .. راقب البطل حانقًا وهو يخطئ عدة مرات، وفي كل مرة يكتفي برفع يده للاعتذار دون غضب من المخرج الذي لا يغفر عادةً أي خطأ يرتكبه ممثل آخر .. أخرج علبة سجائره، ثم تناول واحدةً، ما كاد يشعلها حتى تذكر أن التدخين ممنوعٌ داخل الأستديو، فتراجع وهو يزفر أنفاسه بحرارة .. طلب البطل مهلة لالتقاط الأنفاس بعد أن أخطأ في نفس الجملة للمرة الرابعة، ثم أخرج سيجارة ودخنها دون اعتراض من أحد .. تطلع إلى البطل بغضبٍ مكبوتٍ .. لا يخفي حقده عليه .. ها هو في عامه الثالث في التمثيل ينال أدوار البطولة ويتسابق الجميع للتعاقد معه، بينما قضى هو أعوامًا طويلة يصارع أمام الكاميرات وعلى خشبات المسارح، وفي مختلف الأدوار دون أن ينال حظه من الشهرة التي يستحقها .. تطلع لساعته .. تأخر الوقت، لكن عليه الانتظار إلى أن ينتهي البطل من مشهده المتعثر مهما طال الأمر .. تطلع مجددًا إليه بحسدٍ، هز رأسه وهو يؤكد لنفسه: «أنا أفضل منه كممثلٍ بكل تأكيدٍ.. لو كانت الحياة عادلةً لكنت مكانه الآن .. لكن من قال أنها عادلة!»

لم ينهي عمله إلا متأخرًا على غير العادة، بعد أن انتهى البطل من أداء مشهده بنجاح أخيرًا.

كان يقضي مع ابنة عمه وقتًا لطيفًا حتى جاء زوجها فانسحب بهدوءٍ وهو مازال يرقبها .. الأوقات الجميلة تمر سريعًا، خططا معًا لحفلة عيد ميلاد أحد أقاربهما .. تطوع فقط عندما علم أنها ستنظم الحفل .. اجتماعيةٌ هي ولا تترك مناسبة عائلية مهما كانت صغيرة دون أن تضع بصمتها .. مضى الوقت معها بسلاسة دون أن يشعر .. في نهاية الحفل حضر زوجها متأخرًا كالعادة .. اعتذر لأنه اضطر إلى المكوث في الأستديو لوقتٍ أطول لتصوير مشهد يتعثر البطل في تنفيذه .. راقبها وهي تبتسم بصفاءٍ بعد أن علا القلق محياها طوال الوقت لتأخره غير المعتاد .. تقبلت اعتذاره الواهي برحابة صدر لا يمتكلها .. هز رأسه في أسفٍ، وانسحب من الحفلة سريعًا بعد أن قررت المغادرة مع زوجها

كم أحبها! .. لعله لم يحب أحدًا في حياته سواها .. ابنة عمه وجارته والقاسم المشترك في أجمل لحظات طفولته وصباه .. تقدم إليها عدة مرات لكنها رفضته .. تحججت بأنها لا تحمل تجاهه سوى مشاعر الأخوة .. لم يخفق قلبها بأي مشاعر أخرى إلا لذلك الأحمق .. ممثل كومبارس لا يقدم سوى بضع جمل ومشاهد قصيرة في عدة أعمال لا ترفعه لمصاف النجوم .. لا يدري لما أحبته .. لما اختارته هو تحديدًا وقد تقدم إليها من هو أفضل منه؟ .. لما رفضته وهو أكثر عشقًا لها ونجاحًا من زوجها .. ويمتلك شركة ضخمة يعمل بها عشرات على شاكلة زوجها المعدم ..

تنهد وهو يشاهدها تغادر معه في سيارته المتهالكة .. تحسس طعم المرارة في حلقه وهو يلحظها تضحك من قلبها لدعابة أطلقها كما يبدو .. هز رأسه قائلا لنفسه بحنق:

-تلك الحياة ليست عادلة حقًا!

انتظر في سيارته قليلاً حتى يستعيد هدوءه، مرت دقائق قبل أن يستجمع شتات نفسه أخيرًا وينطلق مسرعًا لموعد مع ابنه الأكبر .. سيلعب الليلة مباراة هامة وعليه أن يشاهدها ..

المباراة تشتعل، لا يكاد المدرب السابق يعي ما حوله، يواصل تشجيع فريقه دون توقف .. لم يصدق نفسه وفريقه يحرز هدفًا في اللحظات الأخيرة يحسم به المباراة، لكنه لم يقفز فرحًا كما فعل كل من حوله .. انطلق الجميع لتهنئة اللاعب صاحب الهدف .. نجم الفريق الذي يحجب الأضواء عن الجميع .. شعر المدرب السابق في تلك اللحظة فقط بآلام الركبة تهاجمه فاضطر للجلوس، لم يفعل من بداية المباراة .. لم يفلح في طرد الحنق الذي يسيطر عليه رغم الفوز المتأخر .. تلفت حوله ببطءٍ، لمح ذلك الرجل الأنيق وهو يقف على بعد عدة أمتار منه .. رجل الأعمال الشهير الذي لا يراه كثيرًا، يقف فرحًا وهو يتابع التفاف الجميع حول ابنه، لما لا وهو نجم الفريق الذي سجل هدفًا للتو واللاعب الصاعد بقوة في سماء الشهرة؟.. هز رأسه حانقا ..

كان يفترض أن يكون ابنه الوحيد هو نجم الفريق وهدافه .. منذ نعومة أظافره يدربه كي يكون الأفضل، كي يرث مجده .. تذكر ماضيه بحسرة؛ إصابة لعينة أنهت مشواره كرياضي بارز يتوقع له الجميع مستقبل مبهر .. ويبدو أن ابنه ورث منه سوء الحظ .. لم تطله إصابة، لكن لاعبًا آخرًا في نفس مركزه يتألق ليتركه طي النسيان .. تطلع للجمهور بحنقٍ وهو يهتف للنجم الجديد، ووالده الأنيق يقف بينهم فرحًا .. تنهد بحرارة .. لما يحظى البعض بكل شئ؟.. المال والشهرة والحظ .. رجل أعمال أحمق، لم يحضر تدريبات ابنه من قبل أو يهتم بمتابعتها بأي حال، لم يتعب مثله أو يسهر وهو يرسم الخطط له كي يحلق عاليًا في سماء الرياضة، لم يكرس حياته كلها لابنه كما فعل .. لا يدري فيما أخطأ .. ابنه يمتلك الموهبة بالفعل ولا يبخل بجهده، لكن ليعترف، اللاعب الآخر يفوقه موهبةً .. زفر أنفاسه في ضيقٍ وتطلع للمرة الأخيرة لرجل الأعمال وهو يقف فخورًا

بابنه .. كان يجب أن يكون في موقعه الآن .. تلك اللحظة يفترض أنها له .. يستحقها بعد أن بذل كل جهده طوال سنواتٍ .. ولم يتمنى سواها .. لكن الحياة ليست عادلةً على أي حال .. هكذا فكر وهو يتجه لابنه الوحيد فيحتضنه برفقٍ ليغوص الولد لبرهة في جسده أبيه الضخم .. ثم يصحبه عائدًا للبيت وهو يجاهد أن يبدو سعيدًا

أمامه ساعة واحدة للعودة للمنزل للاطمئنان على زوجته، قبل أن يعود للأستديو مرة أخرى .. الطريق مزدحم وكأنه يتآمر ضده .. زفر أنفاسه ساخطًا .. وقفت بجواره سيارة يقودها رجلٌ ضخم، وبجواره شاب يرتدي زي رياضي .. يبدو أنه ابنه، والأب يواصل الحوار معه بلا انقطاع .. شعورٌ بالضيق ينتابه في تلك اللحظة رغمًا عنه .. لم يعد يتذكر آخر مرة اجتمع فيها مع ابنه أو تبادلا الحديث، وها هي زوجته مريضة ولا يكاد يجد الوقت للاطمئنان عليها .. سمح للعمل أن يمتص كل وقته بأنانية لم يعد ينكرها أو يتبرأ منها، تجاهلهم طويلاً، حتى عندما يكون بينهم يظل تفكيره مشغولاً بالعمل .. النجاح يغري صاحبه بالمزيد، وهو الألمع في مجاله، والاسم الأكثر شهرة كمخرج، وخزانة جوائزه تكاد تمتلئ لتشهد بنبوغه .. لا يريد التخلي عما وصل إليه ببساطة .. لكن لكل شئٍ ثمن كما يقولون .. ويبدو أن الثمن عائلته ..

قطع حبل أفكاره رنين الهاتف، اتصالٌ من مساعده يبلغه بوجود مشكلة في الاستديو .. اللعنة .. حتى في أوقات راحته تلاحقه متاعب العمل .. ومازال عليه حضور حفل هام، قد يستلم جائزة جديدة اليوم .. كان ينبغي أن يرى ابنه ليسأله عن نتيجته في اختبار الأمس، أو لعله اختبر الأسبوع الماضي .. لم يعد يتذكر .. دائما يجده نائمًا عندما يعود إلى المنزل متأخر. ا كالعادة، وفي أوقات راحته يفضل الولد الخروج مع أصدقائه عوضًا عن

قضاء الوقت مع أبيه .. هز رأسه حانقًا وهو يحاول التخلص من الزحام باتخاذ طريق جانبي ضيق للالتفات سريعًا والعودة إلى الأستديو .. سيكبر ابنه ليكرهه، أو يبادله الإهمال والتجاهل ببساطة رغم أنه يفعل كل ذلك له، لو توقف عن العمل لفترة وجيزة سيختفي اسمه سريعًا في سوقٍ يعج بالطامحين .. ألقى نظرة أخيرة على قائد السيارة الذي يرتدي زي رياضي كابنه .. ما زال يندمج معه في الحديث وكأنهما أصدقاء مقربين .. اللعنة على تلك الحياة غير العادلة .. أفاق من أفكاره بعد أن ظهر فجأة أحد المارة أمامه من العدم كما يبدو فكاد يصدمه .. وجه له سباب حاد .. قبل أن يندفع بعربته في الطريق الجانبي مُحدثًا ضجة عالية.

كانت لحظة الإعلان عن الجائزة مليئة بالتوتر .. لم يعد المخرج الشاب قادرًا على المكوث ثابتًا على كرسيه .. لم يستطع إخفاء مشاعر الحنق التي انتابته وظهرت على وجهه بوضوح بعد أن فاز المخرج الشهير بالجائزة كالمعتاد .. تطلَّع إليه وهو يصعد خشبة المسرح برشاقة تامة رغم جسده المترهل وسنوات عمره الخمسين، ثم يبتسم للكاميرات بتمرُسٍ وهو يتسلم الجائزة .. تلك الحياة الحمقاء ليست عادلةً .. ما الذي ستضيفه جائزة جديدة للمخرج الشهير مع دولاب جوائزه الممتلئ .. كان هو أحق بها منه .. ربما لم ينجح فيلمه الأخير كثيرًا مع الجمهور، لكنه أفضل فنيًا من كل الأفلام المنافسة، بما فيها الفيلم الفائز ..

انتهز أول فرصة سانحة وتسلل خارج الحفل بهدوء .. ساق إليه القدر أحد أعضاء لجنة التحكيم أمام المصعد حيث ينتظر ناقمًا، اجتاحه تيار غضب على الفور ما أن لمحه، ناقد قديم يعرفه منذ كانا يخطوان خطواتهما الأولى في عالم الفن، وتوقع أن يمنحه صوته .. ما أن رآه الناقد حتى هرع إليه مبتسمًا، لكن غضبه كان أكبر من لباقته المعتادة فلم يبادله

التحية في البداية .. قبل أن يصافحه مرغمًا وهو يطلب منه بعصبية تفسيرًا لما حدث، وبصوتٍ أعلى من المعتاد .. امتص الناقد غضب المخرج قبل أن يصحبه للخارج بعيدًا عن أعين الفضوليين

ما أن استقرا في أحد المقاهي القريبة حتى بادره الناقد متنهدًا:

- قلتُ لك من قبل أن فيلمك لن ينجح، كحال سابقه.

انفجر المخرج الشاب غضبًا وهو يسأل:

- وما السبب .. تعلم جيدًا أني أبذل مجهود أكبر من الآخرين، وأهتم بكل تفاصيل العمل .. لما لا تنجح أفلامي بعد كل ذلك من وجهة نظرك؟

ابتسم الناقد وهو يرد بهدوء:

- ربما لأن شيئًا ما ينقصها .. لنتحدث عن فيلمك الأخير على سبيل المثال .. والذي يدور حول شاب مجتهد يكافح في الحياة، ثم ينال في النهاية كل ما يتمناه، نهاية مثالية كعادة كل أفلامك .. هكذا توقعت له الفشل سريعًا .. لأنه لا يجسد الواقع.

- لكن القصة واقعية للغاية!

هز الناقد رأسه قائلا:

- الحياة لا تمضي بتلك البساطة، أو العدالة المثالية .. أنظر حولك جيدًا، ستجد العديد من الأمثلة التي تؤكد كلامي .. كم من مطربٍ صوته سئ لكنه مشهورٌ وأغانيه يحفظها الجميع! وآخرين صوتهم أفضل لكنهم لا يتمتعون بأي شهرةٍ .. والمجرم الذي يتم القبض عليه في أول جريمة يرتكبها رغم حذره، وآخرون ارتكبوا عشرات الجرائم وما زالوا بعيدًا عن يد القانون .. والجندي الذي تلقى أحدث تدريبٍ لكنه يلقى مصرعه في أول معركة حقيقية يخوضها، وآخر دون تدريب كاف ينجو بل ويصبح بطل

حرب .. وطفل مريض يتوقع له الجميع الموت فيكبر ويشيخ، وآخر سليم تمامًا يموت في عز شبابه.

- وما علاقة ذلك بأفلامي؟

- كما قلت لك، لهذا أفلامك لا تنجح؛ لأنها تنتهي دوما بنهاية عادلة .. والجمهور يتوقع نهايتها، والنهايات المتوقعة تجلب الملل وتقتل الإثارة .. الحياة نفسها ليست عادلةً دائمًا، وربما ذلك سر غموضها، جمالها، واستمراريتها .. حياةٌ لا تخضع للمنطق في كثير من الأحيان، مليئة بالتحولات والمفاجآت التي لا يمكنك توقعها مهما حاولت، وهذا سر شغفنا بها .. لو كانت الحياة عادلةً دومًا، لباتت نمطية سهلة التوقع ومملة .. وفقدت إثارتها وبالتالي تعلقنا بها .. قليل من عدم العدالة والخروج عن المتوقع يضمن لتلك الحياة الغموض اللازم لنجاحها .. ويمنحنا الأمل أحيانًا في غدٍ أفضل عكس كل المعطيات السلبية .. ومن يعلم؛ ربما نستفيد من عدم عدالتها أحيانا بصورة أو بأخرى دون أن نشعر .. لهذا السبب تفشل أفلامك .. لأنها ببساطة تنقصها .. بعض الواقعية .. هل فهمتني؟

لوهلةٍ تطلع إليه دون رد .. تنهد بعدها المخرج الشاب وهو يهز رأسه قائلاً:

- ليس بشكلٍ كامل .. لكني سأحرص في الفترة القادمة أن تنتهي كل أفلامي بنهاياتٍ قاسية بل أبعد ما تكون عن العدالة لأبطالها .. لعلها تنجح

هز الناقد رأسه وهو يتطلع إليه في يأسٍ، دون أن يعلق.

البحيرة

لم أكن أتصور في أسوأ كوابيسي، أن يتم إزاحة الستار عن جريمة ارتكبناها من ثمان سنواتٍ

وها أنا ذا أرى قريتنا تغلي، ويبتلعها القلق، ومصيرها يكتنفه الغموض

والكل في حالة ترقب، من الخوف، أو اللهفة الشديدة لاكتشاف الحقيقة بعد طول انتظار، ومن ثم الانتقام

ونشاطٌ غريب يدب في المكان بعد طول سكون .. وينذر بالموت

أشهد مع الكل البحيرة التي تجف أطرافها وتتناقص يومًا عن يوم .. عاجز عن التدخل

البحيرة اللعينة التي يضربها الجفاف الآن بعد قرابة نصف قرنٍ من تكوينها.

تقول جدتي أن البحيرة لم تكن في البداية سوى مجموعة من المستنقعات في الطرف الغربي من قريتنا، والتي تتكون من وقتٍ لآخر بفعل مياه الأمطار وتراكمها لانخفاض الأراضي هناك عن مستوى أراضي باقي القرية .. وكنتيجةٍ لفيضان عنيف ضرب قريتنا وكاد يهلكها قبل بناء السد بسنواتٍ، قام الأهالي سريعًا بتصريف المياه الزائدة إلى هناك لتتشكل البحيرة في صورتها الأولى .. ثم بدأنا تدريجيًا نغذيها بمياه الصرف الزراعي من الحقول المجاورة، لتستمر في التوسع مع مرور الأيام

ورغم الرائحة الكريهة أحيانًا، إلا أننا لم نفكر في التخلص من البحيرة، بعد أن باتت أحد معالم قريتنا الفريدة .. كما تزايد اعتمادنا على التخلص

من مياه الصرف الزراعي هناك .. بل بدأ البعض في استغلال الأمر وزراعة بعض أنواع السمك فيها، والتي لم نكن نشتريها في العادة إلا لرخص ثمنها بسبب طعمها الكريه .. فضلاً عن استمتاعنا بالقرب منها في الصيف، دون أن نسبح فيها نظرًا لتركيز الأملاح العالي بها، ولاحتوائها على بقايا المبيدات التي نستخدمها في الزراعة .. ومياهها العكرة لم تكن تشجع أحدًا على أي حال بالسباحة، ومن يفعل يتعرض لالتهابات في العين والجلد يستمر أثرها لعدة أيام

بعد سنوات قليلة من ظهور البحيرة، عاد شبح الثأر ليخيم على القرية بعد أن قُتل أحد أفراد عائلتنا على يد عائلة البشير التي تستقر في الطرف الآخر من القرية .. ولسنوات طويلة لم نعد نحصيها، أريقت الدماء، وأصبح الموت مألوفًا لدينا أكثر من اللازم، وباتت مشاعر الحزن والخوف والحذر وحدها من تحكم القرية وتبسط سطوتها على كل بيتٍ فيها .. حتى تصالحت العائلتان في النهاية من ثمان سنوات

تنفسنا جميعا الصعداء؛ الكل خاسر في حرب الثأر دون شك، ولا تستقيم الحياة بأي حالٍ مع مشاعر الخوف وترقب الأسوأ طوال الوقت .. وبدأنا ننعم أخيرًا بفترةٍ من الهدوء والسلام

وها هو شبح الانتقام اللعين يعود ليخيم على القرية .. والكل يحبس أنفاسه من الرعب

وقريتنا المعدمة لا تحتمل حربًا أخرى

ما زلنا ندفع آثار حروبنا السابقة حتى الآن

وألعن بشدة حماقتنا ..

قبل ثمان أعوام، ارتكبنا جريمة برعونة غريبة .. كنت مع ابن عمي وأحد أفراد عائلة البشير في حقلنا القريب من البحيرة .. بدأ الأمر بمزحة حمقاء

من سعد البشير كعادته في إلقاء المزحات السمجة .. لم نتقبلها تلك المرة .. تشاجرنا .. التهبت الأعصاب سريعًا .. ضربته بالعصا دون تفكير بعد أن اشتبك مع ابن عمي .. لم أرغب سوى بإبعاده عنه .. لكنه تحرك وأنا أهوي بالعصا لتستقر الضربة على رأسه عوضا عن كتفه كما كنت أنوي .. وعاجله ابن عمي بلكمة قوية تبعتها أخرى أقوى بمجرد أن تراخت قبضة غريمه أخيرا على رقبته، ليسقط سعد على الأرض دون حراك

قتلناه في لحظة حماقة .. وخوفًا من افتضاح الأمر، ألقينا جثته سريعًا في البحيرة بعد أن حرصنا على ربطها بحجر ثقيل

مع الاختفاء المريب لسعد، رأينا نظرات الاتهام في عيون عائلة البشير .. بحثوا عنه طويلاً دون جدوى، ليشتعل غضبهم

ولصعوبة تيقنهم من الأمر، وعدم رغبتهم بالتأكيد بدأ حرب جديدة لمجرد شكوك قد يثبت زيفها فيما بعد، عانت القرية حالة ترقب قلقة طوال سنوات

شاركناهم البحث طوال تلك المدة، خاصةً بعد أن رآه البعض يتجه لحقلنا ذلك اليوم، لكننا أقسمنا على عدم رؤيته .. ولسنواتٍ فشلت كل جهودهم في العثور على جثته، وبقي الحال على ما هو عليه، وبدأت تعاودنا الطمأنينة تدريجيًا .. حتى لو فكروا في الغوص للبحث عن جثمانه في قاع البحيرة كما لمح البعض، مياه البحيرة العكرة للغاية لن تساعدهم على الرؤية

كدنا ننسى الأمر مع مرور السنوات ..

حتى قررت الحكومة فجأة الاستجابة لعدد من شكاوينا السابقة وشق قنوات صرف جديدة، بعيدًا عن البحيرة التي باتت مصدرًا متزايدًا للأوبئة .. وتدريجيًا مع خفض مياه الصرف الزراعي التي تغذي البحيرة حتى انقطاعها، بدأت البحيرة تتناقص شهرًا وراء آخر .. ومعها تلتهب أعصابنا، ويكتم الكل أنفاسهم ترقبًا

لعدة أشهر راقبنا الأمر بتوتر، وشمس قريتنا التي لا ترحم تعجل بتجفيف البحيرة بصورةٍ أسرع من المتوقع، وكأنها في خصامٍ معها ..

تآكلت أطرافها ببطء، وبات ينكشف جزء جديد من قاعها كل فترة .. القاع الذي يخفي عظام سعد ويفضح جريمتنا

ليتنا تخلصنا من ملابسه حتى يصعب التعرف عليه .. لكن حتى لو فعلنا، يمكنهم تمييزه في النهاية؛ عدد المفقودين في قريتنا محدود للغاية، والفحوصات الحديثة لن تدع مجالا للشك خاصةً أن أبيه وأخيه وأبنائه ما زالوا على قيد الحياة

بات الحذر يسيطر على تعاملاتنا، وأخبار جفاف البحيرة يتابعها الكل بلهفة

الشهور تمر ببطء قاتل ومعها تزداد أعصابنا التهابًا

ويقتلنا الندم

هل نبادر بالاعتذار .. نتوسل إليهم طلبًا للغفران

مستعد أن أفعل أي شئ .. ليس من أجلي، وإنما من أجل صغاري حتى أجنبهم حربًا حمقاءًا لا ذنب لهم فيها.

حربٌ يدفع الكل ثمنها مهما كان موقفه منها، وبقسوة

اللعنة على عادات الثأر الأحمق .. لما يدفع أبرياء ثمن خطأ ارتكبه آخرون في لحظة حماقة .. ولما يعمينا الغضب فلا نهدأ إلا بعد أن تتلوث أنفسنا بدماء الآخرين دون اعتبارات لصداقة أو شراكة أو صلات نسب ومصاهرة طالما جمعتنا بدفء بهم في السابق .. ونهدم بحماقتنا أعمدة المعبد الذي يجمعنا بهم وبجنون أعمى في سبيل الثأر لحياة لن تعود ..

والأيام تمضي دون هوادة ..

بعد خمسة أعوام من قرار الحكومة، باتت البحيرة الآن مجرد مستنقع كبير لا أكثر

أسابيع قليلة كما أتوقع وينطلق مارد الثأر اللعين ليقضي على الأخضر واليابس

ويسمم حياة الكل هنا ..

وتجارة الأسلحة بدأت تنشط

وما توقعناه حدث ..

ظهرت العظام في قاع البحيرة أخيرًا، ليراها أحدهم ويسرع بإبلاغ الشرطة

انتظرنا بخوفٍ

بعد يومين وصلت الأنباء المؤكدة من بعض معارفنا في قسم الشرطة، ومن خالي الذي تم استدعائه فجأة

اعتقدنا أن العظام لسعد .. لكن الصدمة كانت عثورهم على جثمان اثنان من أولاد خالي الأكبر، كانا قد غادرا القرية من عدة أشهر للهجرة، وانقطعت أخبارهما .. ظننا أن المركب التي تحملهما للخارج قد تعرضت للغرق كما يحدث كثيرًا، أو تم القبض عليهما هناك، وانتظرنا أخبارهما بلهفة

تعرف عليهم خالي من ملابسهم، وخاتم الخطبة في يد أحدهم، وها أنا ذا أرى عائلة البشير يتحصنون في بيوتهم خوفًا من الانتقام، فلم يعد هناك مجالاً للشك

الملاعين ..

قررت عائلة البشير الانتقام كما يبدو لمقتل سعد فتربصا بأولاد خالي في المدينة قبل سفرهما، وألقيا بجثمان كل منهما في البحيرة كما خمنوا أننا فعلنا بسعد

تجتمع عائلتي على الفور ..

أرى جنون الغضب يعصف بهم، وبريق الانتقام الأحمق يشتعل في أعينهم .. وحربٌ أكثر عنفًا تطرق الأبواب، وجنون الموت يظهر ويمرح بحرية بعد أن سيطر هوس الانتقام على عقول الجميع .. دون أن يتدخل عاقل لمنع ما يحدث وتذكيرهم بالعواقب القاسية المحتملة

ودون تفكير، انضممتُ إليهم في الحال بغضبٍ.

شهرة

اللعنة على الشهرة .. في الماضي كان حولي كثيرون أحكي لهم همومي دون خوفٍ، وأنفث بصحبتهم عما يضايقني، وأفتح لهم قلبي وأرتاح حقًا لتواجدي بينهم .. والآن لا أجد سواك .. لا تؤاخذني يا دكتور .. أتحدث فقط بصراحة كما طلبت مني.

منذ وقعتُ في فخ الشهرة، وحياتي البسيطة التي اعتدتها انقلبت رأسًا على عقبٍ.. لم أعد أتصرف بعفوية كالسابق، ويسئ الكل تبرير معظم تصرفاتي .. والأسوأ من ذلك، أشعر أني تحت عدسة مكبرة طوال الوقت لا تجيد سوى تضخيم هفواتي وأخطائي ..

أفتقد حقًا الإنسان البسيط التلقائي الذي كنت عليه قبل الشهرة .. أضحك وأعبث مع الجميع وأغضب وأفقد أعصابي وأتشاجر، وأقول رأيي بصراحة دون خوف أو خطوط حمراء عديدة ترهقني .. كل ذلك انتهى الآن، أو بات مستحيلاً .. هل تعلم لماذا؟

لأن للأضواء ضريبة وثمن .. عيونٌ تراقبك في كل مكان، وعيونٌ أكثر تتلهف لسماع أخبارك وفضائحك، يترجمون تصرفاتك كما يحلو لهم .. ويصممون على تفسيرها من زاويةٍ واحدة فقط تتفق بالتأكيد مع آرائهم المُسبقة عنك وشخصياتهم المعقدة .. ولا أحد يرى الحقيقة الكاملة، وهو ما يعذبني ..

بعد انتهاء التصوير تلك الليلة من عدة أسابيع فقط، خرجت لتدخين سيجارة .. جروٌ أحمق يبدو تائها عن أمه جاء يتمسح بي .. تحركت لعدة خطوات بعيدًا عنه فلاحقني .. لأصدقك القول، لا أحب الكلاب .. لديَّ فوبيا

منها منذ هاجمني كلبٌ ضخم وأنا صغير .. حاولت أن أبعد الجرو قليلاً بقدمي فازداد التصاقًا بي .. دفعته بقوةٍ أكبر لكن برفق .. لم أكن أدرك وقتها أن هناك صحفي لعين يترصدني .. الأستوديو ملئ بالصحفيين على أي حالٍ ممن يجاهدون للعثور على أي خبر يُرضي فضول القراء .. في اليوم التالي كانت صورتي وأنا أدفع الكلب بقدمي وملامح الاشمئزاز تعلو وجهي بوضوح مثار تعليقات كثيرة تتهمني بالقسوة الشديدة، بل وتعرضت لحملة عنيفة من محبي الحيوانات في كل مكانٍ دعوا فيها لمقاطعة جميع أفلامي .. وتصاعدت الحملة ضدي، فاضطررت أن أستمع لنصيحة وكيل أعمالي الأحمق فقمت باقتناء كلب وقط في منزلي حتى أثبت للجميع أني لست من كارهي الحيوانات .. وهو ما أسعد ابني الصغير دون شك، لكني لم أعد بعدها أطيق المكوث في المنزل بعد أن تحول إلى حديقة حيوانٍ صغيرة ..

ليت الأمر اقتصر على الجمهور، حتى المقربين منك يسيئون تفسير كل أفعالك .. يقارنون طوال الوقت بين ما كنت عليه قبل الشهرة وبعدها .. ولا يدركون أن الإنسان بطبعه يتغير .. وأن الثبات ليس من شيم الحياة .. في الفترة الأخيرة زادت الخلافات بيني وبين زوجتي .. أعشق زوجتي بكل تأكيد، خاصةً أن قصة حب جميلة جمعت بيننا لسنواتٍ قبل اقتراني بها .. بدأت الشهرة تطرق بابي تدريجيًا وزادت أعمالي .. لم أعد أعود إلى المنزل إلا في الساعات الأولى من الصباح مرهقًا ونصف نائم .. تحدثني فلا أتمكن من الإنصات إليها بتركيز .. تطلب مني الخروج كالسابق فأعدها دون تنفيذ .. نسيت عيد ميلادها وتاريخ زواجنا وكل المناسبات الهامة، وبدأتُ لأول مرة أغيب عن البيت لأيامٍ بسبب التصوير في الخارج .. لم أكن أدرك حقًا التأثير السلبي لكل ذلك عليها .. خاصةً بعد فيلمي الأخير والذي يحوي عدة مشاهد رومانسية تفيض بالمشاعر الفياضة مع ممثلة شابة، وما تلاها من شائعاتٍ سخيفة عن علاقة تجمعنا .. مسكينةٌ زوجتي .. لم أكن أدرك أن بركانًا يتأجج داخلها بهذا العنف وينتظر فقط

فرصة للخروج .. وعندما وجهت إليها ملاحظة عابرة عن وزنها لم أقصد منها سوى المزاح، انفجرت فجأة .. فسَّرت ابتعادي عنها وتعليقاتي القاسية بأني بدأت أنفر منها، لما لا وأنا ألتقي يوميًا بأجمل النساء بحكم عملي؟ .. اندفعت لتؤكد أني لم أعد أنجذب إليها كالسابق خاصة أنها لا تتمتع بجمال كبير، ونالت السنوات ومتاعب الحمل منها .. ورغم أني صالحتها يومها .. إلا أن علاقتنا لم تعد كالسابق

حتى أصدقائي وعائلتي يزعمون أني تغيرت بعد أن تغيبت عن أكثر من مناسبة، ولم أعد ألتقي بهم كالسابق .. صدقني لا أفعل ذلك عمدًا، لا أجد وقتًا لالتقاط الأنفاس والتفكير في نفسي، ومن ثم التفكير في الآخرين بأي حال .. وعندما نلتقي مصادفةً، أخشى أن أتحدث معهم بعفوية كما كان الأمر من قبل خشية أن يسئ أحد فهم كلامي .. بل والأسوأ، أن يفشي أحدهم أسراري .. تصور .. من عدة أشهر، جمعتني جلسة مع عدد من الأصدقاء القدامى في حفل زفاف أحدهم، تحدثت وقتها بأريحيةٍ تامة فهاجمت إحدى الممثلات .. أعترف أن كلامي كان قاسيًا، لكني بُحت به في جلسة خاصة وعبرت عن رأيٍ شخصي لا أكثر وسط أصدقاء مقربين مني، لأتفاجأ لاحقًا بانتشار تسجيل لمعظم ما قلته على مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة .. لم أعرف الفاعل، ولم يتكرر الأمر بعد أن استوعبت الدرس جيدًا .. صدقني .. ليس هناك أسوأ من أن تحيا دوما في حذر وشك من الجميع، وبخاصةٍ عندما تتواجد بين تلك الدائرة الخاصة من المقربين منك.

لم أعد حتى بقادرٍ على أن أتصرف كأي إنسان طبيعي، يُخطئ ويصيب .. ويُنفث عن انفعالاته بشكلٍ حاد من وقت لآخر .. من عدة أيام تشاجرت مع زوجتي مجددًا بسبب غيرتها .. توجهت لكافتيريا قريبة لاستعادة هدوئي قبل التصوير .. كان عليَّ أن أبتسم رغمًا عني لكاميرات المعجبين ممن يصرون على التقاط صوري، ويواصلون اختراق مساحتي الشخصية

من أجل ذلك، واستنزاف وقتي الخاص دون رحمة .. تأخر النادل في إحضار القهوة التي طلبتها، ثم جلبها باردةً .. دون وعي ثرت عليه .. التقط أحدهم فيديو لما حدث .. ليس المشهد بأكمله، بكل تسلسله الطبيعي ومقدماته المنطقية والتي ربما تشفع لي وتبرر موقفي، ليته فعل ذلك، فقط ظهرت في الفيديو اللعين وأنا أعنف النادل المسكين الذي وقف أمامي بلا حولٍ ولا قوة .. أنا نفسي بعد مشاهدة الفيديو تعاطفت مع النادل .. قرأت تعليقاتًا كثيرةً جارحة تؤكد على اتهامي بالتعالي والغرور وتألمت بسببها دون أن أتمكن من الرد .. وللمصادفة، قبل تلك الواقعة بعدة أيام فقط ظهر زميل قديم في برنامج تلفزيوني، ممثل هاوٍ أعرفه من فترة طويلة، ادعى أنه ساندني كثيرًا في بداية حياتي الفنية، وأني أتنكر له الآن .. لا أنكر أنه قدم إلى بعض النصائح بالفعل في بداية حياتي المهنية، وساعدني في الحصول على دورٍ أو اثنين من الأدوار الصغيرة .. ثم تفرقت بنا السبل بعد ذلك .. طلب مساعدتي لاحقًا، وتحدثت مع بعض المنتجين بالفعل لكنهم رفضوا الاعتماد عليه، ثم نسيت أمره بمرور الوقت .. في النهاية أنا مجرد آداة في يد المنتج ولم أصل لدرجة من الشهرة بعد تتيح لي رفاهية اختيار طاقم العمل .. وبالطبع أضاف كل ذلك إلى رصيدي السئ لدى الإعلام والجمهور ..

وعندما أظهر في أحد البرامج لمحاولة تحسين صورتي، لا أتمكن من التحدث بصراحة .. أو التعبير عن آرائي بحرية وعفوية كما كنت أفعل من قبل خوفًا من إثارة غضب البعض دون قصد، وخسارة جزء من الجمهور .. ظهرتُ من فترة في أحد البرامج الرياضية مناصرًا فريقي المفضل، أخذني الحماس واصفًا فريقي بأنه الأفضل في العالم، وبفارقٍ كبير عن باقي المنافسين .. لأتفاجأ بمشجعي الفريق المنافس الأكثر شعبية ينظمون حملات لمقاطعة أفلامي، بل ويتهمونني بالتعصب والإساءة لناديهم .. هل تصدق ذلك! .. وعندما تعرضت ممثلة زميلة لهجومٍ من أحد شيوخ الفضائيات بسبب الملابس التي ارتدتها في أحد أفلامها، رغم

أنها كانت مناسبة لطبيعة الدور من وجهة نظري، دافعتُ عنها بحكم الزمالة .. لأتفاجأ بأنصار الشيخ وكثيرٍ من المتعصبين يشنون ضدي حملة شعواء ما زالت أصداؤها تتواصل حتى الآن .. وتجعلني أفكر ألف مرة قبل أن أبدي أي رأي. مجددًا ..

من العبث أن تستمر حياتي بتلك الصورة، أعيش محاطًا بعشراتٍ من المقربين، وآلافٌ غيرهم من المعجبين، لكني أشعر بوحدة شديدة وأكاد أفقد عقلي بسبب ذلك، ولا أستطيع أن أثق بأحد. .. لم أتصور أن ينتهي بي الحال يومًا إلى عيادة طبيب نفسي، أدفع فقط كي يستمع أحدهم أخيرًا إلى همومي دون خوفٍ أو قلقٍ .. ولم أفعل ذلك بالطبع إلا لثقتي أنك لن تفشي أسراري .. ليس بحكم أننا جيرانٌ من فترة طويلة، فأنا لا أعرفك جيدا رغم ذلك .. ولكن بحكم قواعد مهنتك .. أعذرني على صراحتي .. كل ما أريده هو حلٌ حاسم لما أمر به .. لا أستطيع أن أواصل حياتي في عالم أفتقد فيه التلقائية والعفوية والثقة بالآخرين، وملئ بكل تلك المحاذير والقواعد التي تكبلني وتخنق حريتي.

توقف عن الكلام .. سادت لحظة صمت، جفف عرقه .. تطلع إلى ساعته فجأة، تنهد قائلاً:

- تأخر الوقت دون أن أشعر به .. عليَّ الانصراف، لديَّ تصوير بعد دقائق ..

نهض ببطءٍ، صافح الطبيب الذي اصطحبه للباب .. قبل أن يغادر أردف قائلاً:

- أشعر براحةٍ على أي حالٍ لأني تحدثت معك عزيزي محسن .. راحة لم أشعر بها من وقت طويل .. أضع نفسي بين يديك وأثق بقدرتك على إرشادي في النهاية إلى أفضل طريق لاستعادة حياتي وتوازني، مهما تطلب ذلك.

بمجرد أن انصرف، حتى عاد الطبيب إلى مكتبه، التقط القلم .. طالع بشكل عابر الملاحظات التي كتبها أثناء الجلسة .. فكر لبرهة في التقييم المبدئي للحالة .. قبل أن يدون سريعًا في ملف المريض:

- بارانويا ..

وضع القلم .. ارتاح لتفسيره، تبدو أعراض جنون الارتياب والاضطهاد واضحة على المريض دون شكٍ .. تراجع قليلاً في كرسيه .. وضع الملف بعيدًا .. ثم زفر أنفاسه بحدة وهو يقول لنفسه:

- ذلك الأحمق المغرور .. تعمد التغيب عن عيد ميلاد ابنتي الذي دعوته إليه الأسبوع الماضي، وأحرجني أمام ضيوفي بعد أن أخبرتهم أنه قادم وانتظروه طويلاً، ثم تعلل لاحقًا بانشغاله في موعد تصويرٍ مفاجئ .. والآن يرفع الكلفة بيني وبينه ويناديني باسمي مجردًا وكأنه صديقي، ويظن ببساطة أني سأتجاوز عن الأمر، بل وغفرت له ما قام به مُسبقًا لمجرد أنه نجم سينمائي معروف .. اللعنة على المشاهير.

الزنزانة

عندما نقلوه إلى تلك الزنزانة هاج وثار عليهم .. لم يُبالِ بالعواقب أو بما ينتظره من عقابٍ إن واصل عناده .. استمرت مقاومته الشرسة، فلم يجدوا بُدًا من نقله بالقوة .. وعندما تم الأمر، تركوه في حالة هياج تامة يواصل صراخه العالي، وقذفهم بأغلظ الألفاظ وأسوأها.

لم يكن غريبًا أن يُظهر مقاومةً لقرار نقله خاصةً أن زنزانته الجديدة تخلو من كل المزايا التي تمتع بها مُسبقًا .. كان من قبلٍ في زنزانة مُتسعة تدخلها أشعة الشمس بانتظامٍ، وتطل على فناء السجن الخارجي حيث يمكنه –مع بعض الجهد- رؤية الشوارع المحيطة بالسجن ومُطالعة وجوه المارة ممن ينعمون بالحرية التي يفتقدها .. ورغم انقباضه من المكان في أيامه الأولى، إلا أنه تأقلم على المعيشة هناك مع مرور الوقت، بل واكتسب صداقة اثنين من رفاقه في الزنزانة، فخففت عنه مرارة السجن .. ولم يكن يضايقه سوى سجين قديم اعتاد تكدير مزاجه، لكنه حرص على تجاهله .. ورغم أنه ما زال في بداية مدة عقوبته التي ستطول لسبع سنواتٍ على جريمة تهريب للمخدرات ضُبط بها متلبسًا، لكنه ظل يُحصي الليالي ويعد الأيام بنفاذ صبر لموعد خروجه المترقب .. مع بعض الحظ يمكنه الخروج بعد نصف المدة إن أحسن سلوكه كما تنص لوائح السجن .. هكذا كان يُمني نفسه .. كل ما عليه فقط هو أن يلتزم ويحافظ على هدوء أعصابه قدر الإمكان .. وهو لم يكن من نوعية مثيري الشغب على أي حال ..

في شهوره الأولى استطلع المكان .. سجنٌ قديمٌ يتكون من جناحين .. الجناح الغربي حيث يتواجد، والجناح الشرقي سئ السمعة في الطرف

الآخر من السجن .. في البداية تم إنشاء الجناح الشرقي ولكن شكاوٍ عديدة وصلت للمسئولين تُندد بسوء المكان .. الجناح هناك لا تصله الشمس حيث تحجب أسوار السجن العالية الضوء عنه، كما أن غرف المساجين به فردية وسيئة التهوية، فضلاً عن ضيق مساحتها، ووجود غرفة الإعدام القديمة في نهاية الجناح هناك مما يثير الفزع لدى السجناء .. تم بناء الجناح الجديد بعدها بعدة سنوات ليتم نقل معظم السجناء إليه .. بينما يتم اقتياد المساجين شديدي الخطورة أو معتادي إثارة الشغب إلى الجناح القديم كنوعٍ من العقاب خاصةً أن الزنازن هناك فردية يسهل مراقبتها .. من يدخل إلى هناك صعبٌ أن يخرج .. على الأقل كما دخل .. وكثيرٌ من المساجين هناك انتهى بهم الحال ضحايا لعنف زملائهم من معتادى الإجرام، أو فريسة سهلة للأمراض أو حتى الجنون .. يبدو المكان مخيفًا بالفعل كلما لاحظه من نافذة زنزانته في الليل.

مع مرور الوقت زادت ثقته بنفسه داخل السجن .. نجح أن يوثق علاقته بزملائه وبعض الحراس .. استطاع بعد مدة أن يتحصَّل على بعض الامتيازات الهامة التي لم يكن يحلم بها، خاصةً بعد أن اكتشفوا مهارته كنجارٍ، فبات يشرف على المساجين الجدد في ورشة النجارة الكبيرة داخل السجن .. عرف كيف يتحصل لنفسه على بعض الطعام من الخارج، والسجائر أحيانًا .. بل استطاع زملاؤه ذات مرة تهريب بضع لفافات حشيش، فقضى ليلةً لا تنسى .. ولم يكن يُنغص عليه حياته سوى خلافاته المتكررة مع زميله بالزنزانة .. وإن حاول أن يتجنبها قدر المستطاع ..

مر عامٌ داخل السجن .. وبدأت تنتابه حالات من الضيق .. دورة الأيام كانت أبطأ من حساباته، ولم يشعر بثقل العقوبة إلا مع تقدم الوقت .. لكنه حاول بجهدٍ الحفاظ على ثباته، وربما ساعدته على ذلك المكانة التي وصل إليها في السجن .. بات له العديد من الأصدقاء، وأعجب الحراس بجودة أعماله حتى أنه أهدى مدير السجن ذات مرة طاولة مكتب عمل عليها

لفترة طويلة، فخرجت كتحفة فنية لتنال إعجابه على الفور، مما عزز من مكانته .. وبدأ يكتسب شعبية بين السجناء خففت من القيود المفروضة عليه خاصةً مع كرمه الشديد .. كما أن زيارات أهله المتكررة منحته بعض القوة .. وعاد مرة أخرى لحساب الأيام والليالي بترقبٍ لموعد خروجه .. وبدأ يُمني نفسه بإفراجٍ مشروط لحسن السلوك ..

حتى وقع في أحد الأيام ما عكَّر صفوه .. ترقب بصبرٍ ظهيرة ذلك اليوم زيارةً من زوجته، فلم تأت كالمعتاد، وتلقى أنباءًا قبلها برفض الاستئناف الذي قدمه لتخفيف العقوبة والذي علق عليه آمالاً كبيرةً .. انتابه الضيق بصورةٍ لم يعهدها .. انكفأ على نفسه يحاول أن يخرج من تلك الحالة دون جدوى .. ضايقه زميله بالزنزانة مجددًا بسماجته المعهودة .. بدأ الأمر يخرج عن شعوره حقًا .. لم يعد لديه طاقة لتحمل سخافاته المتكررة .. اشتبك معه في عراكٍ لفظي في البداية، قبل أن يتطور الأمر بسرعةٍ لم يتوقعها .. انتبه الحراس متأخرًا .. لم تشفع له الإصابات التي لحقت به أو الدماء التي تسيل من جرحٍ صغير أعلى رأسه فسحبوه بعيدًا بقسوة .. لم يكن يفكر وقتها وفشلت كل المحاولات التي قام بها للسيطرة على أعصابه فعزلوه بعيدًا.. استعاد هدوئه بعد فترة .. لم تكن إصابته تستدعي القلق بينما تم نقل زميله للمستشفي بعد أن أحدث به إصابات تحتاج لتدخل طبي عاجل .. أجروا تحقيقًا سريعًا.. انتهى بقرارٍ فوري بعزله إلى الجناح الشرقي القديم كعقابٍ له ..

لم يكن غريبًا إذن أن يهتاج .. سيمكث هناك لفترة طويلة، وربما لباقي فترة عقوبته بعد أن أثبت خطورته على الجميع، وقد لا يخرج حيًا من المكان .. حاول مقاومة الحراس لكنهم سحبوه بقوة للخارج، كبلوه بالقيود وبدأوا نقله للجناح الآخر بحزمٍ .. استقبلته رائحة الرطوبة المنبعثة من غرف الحبس هناك .. رفض أن يمشى فحملوه قهرًا.. علم أن مقاومته لن تُجدي نفعًا فحاول أن يتوسل إليهم ولكنهم صموا آذانهم عن توسلاته ..

استقروا به في زنزانته في الطابق الأعلى، فألقوه بها .. أوصدوا الأبواب خلفه وتركوه في حالة هياج وصدمةٍ لم يفق من آثارها إلا بعد عدة ساعات .. ظل خلالها يطرق بشكل هيستيري على قضبان الباب الحديدية حتى خارت قواه ..

بدأ يستعيد هدوءه ليتأكد أن كل ما قيل عن الجناح القديم صحيح .. الزنزانة صغيرة خانقة لا تتجاوز مساحتها بضعة أمتار، ليس بها سوى نافذة مرتفعة صغيرة لا تطولها يداه ولا تسمح بمرور الهواء إلا بصعوبة .. والرطوبة الصادرة من الجدران تكاد تكتم أنفاسه .. أوقات الخروج من الزنزانة والتجول في الساحة هنا أقل كما اكتشف لاحقًا .. الامتيازات محدودة .. وزملاؤه الجدد أكثر شراسة مما عهدهم ..

مر أسبوع وهو يزداد هزالاً .. ثم شهر بلا جديد .. تنتابه نوبات غضب من آنٍ لآخر، فيسارع الحراس باحتجازه داخل زنزانته .. قدَّم عدة التماسات لإعادته للجناح الشرقي، وانتظر بنفاذ صبر قبول أي منها دون جدوى .. تدريجيًا بدأ يعتاد مكانه الجديد دون أن يتقبله تمامًا .. تشاجر عدة مرات مع زملائه وتلقى الضرب في بعض الأحيان .. بعد شهرين من المعاناة استطاع أن يتعرف على مسجون هرَّب له أخيرًا أول سيجارة .. أخفاها بحماسٍ بعيدًا عن أعين الحراس .. لم يصدق نفسه وقتها، أول امتياز يحصل عليه بعد معاناة .. بمجرد أن رجع لزنزانته تلك الليلة حتى أخرج السيجارة بحذرٍ، تشممها بنشوة ... ثم أخرج عود الثقاب من جيبه بلهفة شديدة، كاد حقًا أن ينسى طعم الدخان .. أشعل السيجارة بيد ترتجف من الإثارة، وجلس يدخنها بتلذذ .. رمى بعود الثقاب أسفل سريره، ثم خاف أن يتم تفتيش الغرفة بشكل مفاجئ كالمعتاد فيتم العثور عليه مما يجلب له المتاعب .. نهض بتثاقل .. تحسس بيده أسفل السرير للعثور عليه دون جدوى .. أزاح السرير بقوة، لتتهاوى بعض أجزاء الجدار على الفور أثر اصطدام طرف السرير المعدني بها .. تطلع إلى الغبار القليل

المتناثر في الهواء .. أزاح السرير بأكمله جانبًا.. تحسس الجدار بيده .. كما توقع تمامًا .. الجدران تآكلت بفعل الرطوبة .. ضم قبضته وضرب على الجدار المتداعي بقوة فتناثر بعض الغبار .. لو يمتلك فقط آله حادة .. لأمكنه صنع فجوة في الجدار بالتأكيد ..

لوهلةٍ استولت الفكرة على رأسه .. الجدار يفصله عن الحرية واستعادة آدميته، وسيلة نجاة يمكن أن يستخدمها للهرب من سعير السجن وقسوة سنوات مقبلة .. عند إعادة التفكير مليًا في الأمر، طرد الفكرة تمامًا من رأسه، بل ضحك بسخرية من حماقته .. لو نقَّب في الحائط سينتهى به الحال حتمًا إلى زنزانة أخرى مجاورة .. كيف غفل عن ذلك الأمر .. ولو حفر لأسفل أيضًا سينتهى للنتيجة نفسها .. ابتسم في سخرية مريرة .. انتابه خاطرٌ ما فجأةً؛ لو نقَّب في الحائط المقابل لسريره، قد تكون هناك فرصة ضئيلة للنجاة .. حاول أن يرسم الأمر تلك المرة بدقة داخل ذهنه .. الحائط المقابل يفصله عن ممر قديم لا يستخدمه الحراس كثيرًا .. ممر طويل يؤدى إلى غرفة الإعدام مباشرة .. الغرفة والممر داخل جناح خاص يغلق تمامًا ولا يفتح إلا عند استخدامه في تنفيذ أحكام الإعدام فقط .. ولا يتولى أحدٌ حراسته ليلاً .. القسم بأكمله لا يحتاج لحراسة لأنه ببساطة يبقى مُوصدًا طوال الوقت .. فقط عند وصول حكم قضائي جديد بالإعدام يقوم الحراس بتجهيز الغرفة قبل ساعاتٍ من التنفيذ لاستقبال المُدان .. غالبًا كما رأى، يتم الأمر في الصباح الباكر .. يتم نقل الضحية مُقيدًا إلى هناك عند موعد التنفيذ .. ثم اصطحاب الجثمان بعدها إلى غرفة مجاورة حيث يتم تسليمه إلى سيارة إسعاف لنقله إلى المشرحة المركزية بمستشفى العاصمة الكبير .. لو أمكنه فقط الوصول إلى هناك، ربما يهرب عبر غرفة الإعدام نفسها .. الغرفة نوافذها بلا قضبان كما كان يراها مرارًا من ساحة السجن عند الخروج للنزهة اليومية .. ليس هناك حاجة لوضع قضبان على النافذة هناك على أي حال .. لا يدخل سجين الغرفة إلا تحت حراسة مشددة .. كما أن السجين الذي يدخلها لا يخرج منها حيًا ..

يمكنه القفز من النافذة إلى الأرض الرملية في الساحة التي ستخفف بالتأكيد من وقع الصدمة، والمسافة ليست كبيرة بأي حال بين الطابق الأعلى والساحة .. ولا يتبقى سوى مشكلة السور .. الأفضل بالطبع أن يتم الأمر في المساء .. حيث يُغلق القسم بأكمله بعد حالات التنفيذ ولا يتواجد أي حارس هناك، كما أن الظلام الذي يعم ساحة السجن سيسهل عملية الفرار

توقف عن التفكير عند هذا الحد .. بعد ثوانٍ هز رأسه ساخرًا.. بالطبع لن يهرب فليس لديه جرأة كافية للقيام بمخاطرة كتلك، وهناك احتمالية كبيرة لافتضاح أمره .. كما أن هناك كثير من العقبات أمامه .. كيف يأتِ بالأدوات اللازمة للتنقيب، ويُخفي الأمر خاصةً مع نوبات التفتيش المفاجئة، وكيفية تسلق السور الخارجي .. كلها عقبات تقف أمام تنفيذ خطته الساذجة .. والأسوأ من ذلك أن الهرب في حد ذاته جريمة ثانية لا يريد التورط فيها .. كما أن فكرة دخوله غرفة الإعدام، وحده تمامًا وليلاً .. تكاد تجعل أسنانه تصطك من الرعب كلما تصورها فقط داخل ذهنه .. طرد كل تلك الخواطر من رأسه إذن، نسى الأمر تمامًا، ولكن الظروف اللاحقة أجبرته على أن يعاود التفكير في الأمر، وبجديةٍ أكبر.

وصلته الأنباء أن زميله السابق في الزنزانة تعرض لارتجاج في المخ ومضاعفاتٍ أخرى جرَّاء المشاجرة بينهما وسيُعالج لفترة طويلة .. وعرف أن تحقيقًا رسميًا يجرى تمهيدًا لتقديمه لمحاكمةٍ ثانيةٍ عاجلةٍ.. قضية أخرى جديدة ضده إذن .. وربما بسببها تطول مدة عقوبته عدة أشهر .. وحلم الإفراج المبكر لحسن السلوك الذي كان يراوده أضحى صعب المنال الآن .. تأكد بما لا يدع مجال للشك أنه في طريقه لقضاء مدة عقوبته كاملة في السجن، بل ربما تزداد لبضعة أشهر أيضًا، أو سنواتٍ رهنًا بحالة زميله الصحية.

لم يعد لديه أمل إذن يسعى إليه ويخفف من مرارة الأيام داخل سجنه .. ولن يتحمل البقاء بين أسوار السجن ليشهد عاجزًا أوراق عمره تتساقط تدريجيًا داخله .. لديه زوجة بالخارج وعائلة صغيرة .. وحياة لم يختبرها أو يتذوق كل ثمارها الشهية بعد .. لن ينتهي به الأمر داخل أربع جدران لا يرى الضوء إلا بصعوبة، ويرقب الأيام وهي تمتص مع كل صباحٍ جزءًا من شبابه للأبد .. لن يقضي كل تلك السنوات من عمره داخل جحرٍ صغيرٍ كالفئران تحجبه الجدران والقيود عن الهواء والحرية التي ينتمي إليها .. وقتها بدأ يفكر في خطته بمنظور آخر أكثر جدية .. لم يعد لديه خيار آخر إن أراد الحياة ..

عزم أمره .. مستعدٌ الآن للقيام بأى شئ مهما كانت درجة خطورته أو تهوره في سبيل الخلاص من أسر السجن ..عاود التفكير مجددًا في الهرب بصورة أكثر عقلانية وأقل تهورًا .. بدأ يخطط للأمر كله من جديد بدقة شديدة .. لن يسمح للحماس أن يجرفه لخوض مغامرة كبيرة كتلك دون دراسة كافية .. في الأيام التالية جمع أكبر قدر من المعلومات يمكن أن تساعده .. علم متى تُفتح غرفة الإعدام ومتى تغلق بعد تنفيذ الأحكام .. نوبات الحراسة وعددها على نقاط المراقبة على الأسوار .. ارتفاع السور الخارجي للسجن .. خططٌ حتى للمكان الذي ينوي أن يلجأ إليه في حال نجاحه حتى لا تعاود الشرطة القبض عليه .. وضع قائمة بالأدوات التي يحتاجها للتنقيب في الجدار، وتسلُق السور دون كشف أمره .. ورسم جيدًا كيف يخفي عن الحراس ما يقوم به إذا حدثت نوبات تفتيش مفاجئة للزنزانة ..

لعدة أيام خطط لكل شئٍ ببراعة، فلم يتبق سوى التنفيذ .. استطاع أن يُهرب بضع قطعٍ من الخشب مستغلاً عمله في ورشة النجارة .. لم تلفت القطع الانتباه واستطاع أن يمر بها بسهولة من جهاز كشف المعادن على بوابة الجناح كونها خشبية .. قام بتحديد أطرافها بشكل جيد لتصبح حادة

كالكسين، وبواسطتها بات بإمكانه الآن بدأ التنقيب في الجدار .. استطاع أيضًا رشوة كبير الحراس بالنقود التي طلبها من زوجته ونجح في تهريبها للداخل فلم يعد يضايقه بتفتيش الزنزانة .. أما الأسوار فيمكنه تسلقها ببعض الحظ .. ورشة النجارة التي يعمل بها ملاصقة للسور تمامًا ولا يتولى حراستها سوى حارس واحد ليلاً .. لو أمكنه عبور الساحة الخارجية دون كشف أمره وهو أمرٌ سهلٌ نسبيًا في الظلام والوصول للمبنى، فيمكنه التسلق للوصول إلى سطح المبنى الملاصق للسور ومنه للخارج .. لكنه سيحتاج لبعض الحظ وحبل طويل يساعده على الهبوط من السور المرتفع .. فكر في وسيلة للحصول عليه .. يمكن أن يستخدم ملابسه ويفتل منها حبلاً .. لكنه سيكون حبلاً قصيرا بالتأكيد ولن يتحمل ثقل وزنه .. فكر كثيرًا دون حلٍ .. لثلاث أيام كاملة عصر ذهنه كي يجد طريقة يتحصَّل بها على حبل دون جدوى .. ضايقه الأمر بشدة .. في اليوم الرابع تملكه اليأس تمامًا ليقرر التخلي عن الفكرة بأكملها، وبات ليلته حانقًا للغاية .. لكن في فجر اليوم نفسه واتته فكرة فجأة .. فكرة دفعته للقفز من فراشه .. نهض يذرع الغرفة بحماس شديد .. أغمض عينيه .. تخيل الأمر مرة أخرى .. ابتسم لنفسه .. لما لم يفكر حقًا من قبل في الاستعانة بالحبل الموجود في غرفة الإعدام؛ حبل المشنقة نفسه .. خاصةً أنه حبل سميك يمكنه أن يتحمل وزنه .. شعر برعشة تسري في جسده وهو يخطط للأمر دون وعي .. لكن لم يعد هناك بديل آخر أمامه ..

لم يعد ينقصه سوى التنفيذ .. بدأ بحماسٍ دون تردد .. ولكن مع أدواته البسيطة اكتشف أنه يحتاج لوقت أطول بكثير مما كان يتوقعه للانتهاء من صنع الفجوة التي يريدها .. والحائط لم يكن رخوًا تمامًا كما ظن من قبل .. لكنه واصل العمل بهمة .. شهران وهو يواصل التنقيب بلا توقف حتى انتشرت الجروح على يديه فخاف أن تلفت الأنظار .. وبدأ الأمر يؤلمه حقًا.. لكنه لم يسمح لليأس أن يتسلل إليه .. ذهب إلى الطبيب معللاً جروحه بعمله لساعات طويلة في ورشة النجارة.. تعلم أن يلف قطعة من

القماش حول يديه لحمايتها قبل الحفر ولكنها لم تُفِده كثيرًا .. ورغم حرصه البالغ كاد يقع في أخطاء أخرى لم يضعها في الحسبان .. اعتاد في بداية الأمر أن يواصل الحفر طوال الليل، ليستيقظ متعبًا فتظهر عليه بوضوح آثار قلة النوم، وبخاصةً أثناء عمله الصباحي في الورشة .. كاد أن يفتضح أمره خاصةً مع إرهاقه الواضح وكثرة أخطائه في العمل .. خطط للنوم كل ليلة في الموعد المحدد ثم النهوض لمواصلة التنقيب قبل موعد الاستيقاظ المعتاد للمساجين بساعتين .. ثم زادها لثلاث ساعات مع مرور الوقت بعد أن بدأ جسده يتأقلم مع تقليل ساعات نومه .. في بعض الأحيان كان يتملكه التعب بشدة فينام اليوم بأكمله دون أن ينقب، فيعوض ذلك في اليوم التالي .. مع مرور الوقت بدأ يحسن علاقته المتوترة مسبقًا مع الحراس.. وبات أكثر هدوءًا وحذرًا في تعامله معهم .. لا يريد أن يكتسب عداواتٍ جديدةٍ .. وبخاصةً مع حراسٍ قد يكشفون أمره .. وعندما سمع أن مدير السجن أشاد بسلوكه في الفترة الأخيرة، أسعده الأمر.

سبعة أشهر مرت وهو يزداد هزالاً .. لم يتبق الكثير .. لو استمر التنقيب بالمعدل نفسه ربما ينتهي بعد ثلاثة أشهر .. بات أكثر توترًا، وأشد تصميمًا على المغادرة .. كلما اقترب العمل من نهايته، كلما زاد حنقه على المكان والقيود التي تؤلم حريته .. يشتاق لزوجته حقًا .. ولرؤية العالم الخارجي بلا أسوارٍ تمنعه .. يزداد القلق بداخله بشكلٍ يضغط على أعصابه وإن ظل هادئًا في الظاهر عند تعامله مع كل من حوله .. أحيانًا يتملكه اليأس .. يصب جام غضبه ولعناته على فكرته .. والفتحة التي لا تكاد تنتهي .. لكنه يتخلص من تلك الحالة سريعًا وهو يُمني نفسه بالخلاص .. عمل على تخفيض وزنه إلى أقصى حد حتى لا يحتاج لتوسعة الفجوة وبالتالي لوقت إضافي قد لا يسعفه .. اعتاد النوم لبضع ساعات أقل في الليل ليواصل التنقيب بلا كلل .. تحمل سماجات الحراس وزملائه التي لا تكاد تنتهي ومنع نفسه من الرد عليها حتى لا يجذب الانتباه .. لم يعد بقادرٍ على الحفاظ على نقاء ذهنه .. فقد انتباهه وتركيزه رغم محاولاته

المستمرة للتماسك .. كاد يفقد يديه ذات صباح وهو يعمل على أحدى الآلات الحادة في ورشة النجارة بعد أن شرد بعقله تمامًا، ولم ينتبه إلا عندما صاح به زميلٌ بجواره، فنجا من مصيرٍ مؤلمٍ ينتظره في اللحظة الأخيرة .. لم يعد بقادرٍ على الاستمتاع بالطعام الذي ترسله إليه زوجته أو الشعور بلذة التجوال في الساحة وقت الراحة أو حتى بالمتعة التي كان يشعر بها من قبل وهو يشكل قطع الخشب بين يديه كل صباح بمهارة في الورشة .. لم يعد شئ يثيره أو يمنحه اللذة .. لا شئ يسيطر على خياله ويجتاح تفكيره سوى فكرة واحدة؛ الهرب.

تلك الليلة تأكد أنه اقترب .. صنع ثقبًا صغيرًا رأى من خلاله كل ما كان يحلم به طوال أشهر .. الممر القديم .. معتم تمامًا كما توقع .. تأكد دون شكٍ أنه في طريقه لتحقيق هدفه .. نفذ إلى الجانب الآخر أو اقترب بشدة .. توقف عن العمل على الفور رغم ذلك .. لا يريد أن يلفت الانتباه .. ربما دخل أحد الحراس إلى الممر ولاحظ الثقب .. لم يقم بتوسعته رغم سهولة الأمر

وصل إلى نهاية السباق إذن أو كاد .. حاول استجماع أفكاره، تدبر الأمر جيدًا .. بعد يومين تبدأ إجازة العيد لأربعة أيامٍ، فرصة أهداها له القدر للهرب .. سيتظاهر بالمرض في صباح اليوم الأول للإجازة ولن يخرج للساحة مع بقية المساجين كالعادة، سينام طوال النهار متعللاً بالمرض، وسيواصل التنقيب فور حلول المساء .. يجب أن ينتهي من توسعة الفجوة قبل منتصف الليل ومن ثم النفاذ للممر .. تأكد تمامًا أن الممر مغلق من عدة أيام بعد تنفيذ آخر عملية إعدام، ولن يتم فتحه قبل انتهاء الأجازة، لا تُجرى عمليات الإعدام في تلك المناسبات على أي حالٍ .. والظروف خدمته بالتأكيد فالليلة التي ينوي الهرب فيها غير قمرية .. درس أماكن تواجد الحراس على أبراج المراقبة جيدًا.. وحدد النقطة التي يمكنه من خلالها تسلُق السور دون أن يراه أحد .. وفقًا لحساباته سيحتاج لساعة

لعبور الساحة الخارجية وساعة أخرى لتسلق السور .. إذا هرب قبل الفجر فلن يكتشفوا غيابه إلا بعدها بساعتين أو أقل عند موعد الاستيقاظ المعتاد للسجناء .. سيكون قد ابتعد مسافة كافية وربما في منتصف طريقه للمكان الذي سيختبأ به .. وعندما تبدأ عملية البحث .. سيكون قد أخفى أي أثر له تمامًا ..

بعد عدة أيام إذن سيكسر قيوده، ويطلق سراحه بنفسه .. سيتخلص من أسر السنوات التي تتربص به وتكتم أنفاسه .. أيامٌ محدودةٌ فقط وينال حريته مجددًا.. الحرية التي يستحقها بعد عشرة أشهر كاملة من التنقيب اللعين دون كلل ..

نام تلك الليلة قرير البال كما لم ينم من قبل .. استيقظ مبكرًا في الصباح وهو يشعر بنشاطٍ غريب .. للوهلة الأولى لم يشعر بوقع تلك الأقدام وهي تقترب من زنزانته .. لم يشعر بها إلا متأخرًا.. أسرع بتسوية فراشه سريعًا وإعادته ليلتصق بالجدار مخفيًا الثقب، وأخفي أدواته الخشبية البسيطة تحت فراشه .. انتهى قبل أن يتم فتح الباب .. تنفس بعمقٍ محاولاً السيطرة على القلق الذي يجتاحه بلا رحمةٍ في تلك اللحظة .. تفاجأ بكبير الحراس أمامه .. أعطاه رشوة من قبل حتى لا يفتش الزنزانة .. هل يطمع في المزيد .. أم لعله الأسوأ .. خفق قلبه بعنفٍ .. هل اكتشفوا أمره .. مستحيل .. خطط لكل شئ بدقة وبراعة يُحسد عليها .. لم يرتكب أي أخطاء تفضحه .. على الأقل حتى تلك اللحظة .. ألزم نفسه الهدوء تمامًا رغم كل ما يعتمل في صدره وهو يتطلع بترقبٍ لمعرفة أسباب الزيارة المفاجئة ..

وقف كبير الحراس على باب الزنزانة الضيقة يجول ببصره فيها لبرهة .. هل يبحث عن مكان الحفر .. خفق قلبه بقوة آلمته وهو يقترب منه .. اعتدل على سريره محاولاً التظاهر بالهدوء رغم القلق الذي يعصف به في تلك اللحظة .. وقف السجان بجسده الضخم أمامه .. قال له بهدوء:

- أحمل لك أخبارًا جيدة ربما تدفع في سبيلها الكثير ..

لم يتكلم، التزم الصمت تمامًا .. ربَّت الحارس على كتفه، أكمل كلامه وشبح ابتسامة يلوح على وجهه:

- مبروك، تم قبول التِماسك أخيرًا .. سلوكك في الفترة الأخيرة كان مميزًا بالفعل .. قليلٌ من السجناء من يأت إلى هنا ويسلك بشكلٍ جيد مثلك .. ومدير السجن لم ينسَ أيضًا أعمالك الرائعة التي تهديها له كل فترةٍ .. لهذا، وبمناسبة العيد، قرر قبول الالتماس الذي قدمته من فترة لإعادة نقلك إلى زنزانتك القديمة مرة أخرى .. اليوم ستعود لمكانك القديم في الجناح الغربي مجددًا، تمامًا كما كنت تتمنى .. تبدو مصدومًا، ألم أقل أني أحمل لك أخبارًا سعيدةً؟ .. تستحق ذلك على أي حال.

العالِم

تركت البيت بعد مشاجرة سريعة باتت معتادة مع زوجتي مؤخرًا لأتجه إلى العمل .. كعادة كل الزوجات تتهمني دائمًا بالتقصير في آداء واجباتي تجاه عائلتي، وبأني لا أقضي الوقت الكافي معهم كأبٍ وزوجٍ مسئولٍ عن أسرة .. لأعترف أنها محقة في اتهاماتها، لكنها لا تقدر طبيعة عملي الحساس الذي يستولي على كثير من تركيزي، دون إرادةٍ مني بالطبع، ومعظم وقتي نتيجةً لذلك.

وصلتُ أخيرًا إلى العمل فتوجهت إلى المعمل الجامعي دون إبطاءٍ .. بمجرد أن دلفت إلى المكان حتى انتابني شعورٌ بالراحة؛ هنا فقط أشعر بمزيجٍ من المتعة والحماس وسط العينات والأجهزة وأنابيب الأختبار .. بين جدران المعمل أتنفس الصعداء، وأطرد العالم وهمومه من رأسي وأستعيد كل طاقتي لعلي أنجح في تحقيق إنجازٍ يخدم البشرية، ويُخلد اسمي أيضًا بحروفٍ من ذهبٍ في سجلات العلم .. وصلتُ مبكرًا كالعادة، فبدأتُ تجهيز عدد من العينات قبل وصول الفريق المساعد .. وضعتُ إحداها داخل جهازٍ للاختبار، ثم جلستُ بانتظار نتائج التحليل .. وقع بصري أثناء ذلك على صورة الجائزة العلمية التي تسلمناها مؤخرًا، والتي حرصتُ على تعليق نسخةٍ منها في مكانٍ بارزٍ، فابتسمتُ دون وعيٍ .. وزاد حماسي

توقع لي الجميع من صغري مستقبلاً مبهرًا .. نشأتُ كأي طفل طبيعي؛ ألعب وأمرح مع أصدقائي كلما أتيحت لي الفرصة، جريٌّ ولا أكاد أستقر في مكان، مشاغبٌ بل وشرسٌ أحيانًا .. لكن بمجرد أن يقع بين يديَّ كتابٌ حتى أنزوي بعيدًا ولا أكاد أتركه إلا بعد الانتهاء منه .. جذبتني الكتب العلمية بصورةٍ أكبر، ومع مرور الوقت لم يعد يجذبني سواها .. خاصةً أن والدي كان عالمًا بارزًا قبل أن يتوفى وأنا صغير .. تمنيتُ كثيرًا أن

أصبح عالمًا مشهورًا يشير إليه الجميع بالبَنانِ .. منظر العالم التقليدي بمعطف البحث الأبيض كان دومًا يستهويني .. ولأن طموحي بلا حدودٍ، وعقلي أكبر من سني كما تزعم أمي .. تعهدتُ بتحقيق حلمي مهما كانت العقبات .. واصلتُ التفوق باستمرارٍ في كل مراحلي الدراسية .. قرأتُ واجتهدتُ كثيرًا .. وعندما التحقتُ أخيرًا بالكلية التي طالما حلمتُ بها، لم تُشكل مناهجها أية صعوبة تُذكر، فحصلتُ على أعلى التقديرات دون جهدٍ .. وأتيح لي وقت فراغٍ أكبر بدأت أقضيه بين المكتبات وجدران المعامل، سواء معامل الكلية المتهالكة .. أو معمل والدي القديم.

في سن السابعة عشر، منحتني والدتي أخيرًا مفاتيح معمل والدي في قبو منزلنا بعد أن ظل مغلقًا لسنواتٍ طويلةٍ، بدأتُ بتطويره وتدريجيًا انشغلتُ بالأمر حتى أصبحتُ أقضي فيه من الوقت أكثر مما أقضيه خارجه .. لم تمنعني والدتي أو تُعنفني بل ساعدتني .. كل ما كان يهمها أن أتفوق دراسيًا، وهو ما كنت أحرص عليه .. وعندما تحصَّلتُ على عددٍ من الجوائز العلمية في مسابقات مختلفة، زاد فخرها بي، بل وشجعتني بأن ابتاعت لي كثيرًا من الأدوات التي كنت بحاجة إليها .. ولكنها كانت تُعنفني أيضًا بحزمٍ يصل أحيانًا لحد القسوة عندما تراني أنغمس في هوايتي بشكلٍ مبالغ .. بل أنها ذات مرة وفي ثورة غضبها هددتني بتحطيم المعمل فوق رأسي .. ربما لهذا سارت حياتي بشكل طبيعي كأي شاب في عمري وقتها .. تمتعتُ بصحبة العديد من الأصدقاء وخُضنا عدة مغامراتٍ جنونيةٍ معًا لا تُنسى .. وقعتُ بقصة حبٍ في الجامعة انتهت بالفشل .. دخنتُ مبكرًا بل وتعاطيتُ الحشيش ذات مرة، وتركتُ التدخين بعد أن كاد الأمر يتسبب بكارثةٍ يوم نسيتُ السيجارة بجوار أنبوبة غاز قابل للاشتعال داخل المعمل .. انطلقت. في عدة رحلاتٍ واستمتعتُ بكل لحظة فيها، بل وحرصت على ممارسة الرياضة بشكلٍ شبه منتظمٍ، ومتابعة مباريات فريقي المفضل بجنونٍ .. ولكن ظل أفضل أوقاتي هو ما أقضيه بين جدران المعمل.

عندما أنهيتُ دراستي الجامعية ثم عُيِّنتُ معيدًا، اطمئنت أمي أخيرًا على مستقبلي .. لم أرها سعيدةً من قبل بتلك الصورة .. لكني صُدمت في بداية عملي بكمٍ هائلٍ من المسئوليات الحمقاء لم أكن أتوقعها .. محاضرات .. لجان .. اجتماعات .. أعمال إدارية مملة .. تحمستُ لتعييني في الجامعة لأكرس وقتي للجانب الأكاديمي والعلمي، فإذا بي أتفاجأ بأن مهام عملي تحُول دون ذلك .. فكرتُ في تقديم الاستقالة للتخلص من قيود الوظيفة ومسئولياتها الروتينية المتزايدة التي تمتص معظم وقتي، لكن أمي عارضت الأمر خاصةً بعد أن خطبتُ واقترب موعد زفافي .. تحملتُ في البداية وضاعفتُ جهدي .. اشتهر اسمي تدريجيًا بعد أن نشرت لي عدة مجلات علمية متخصصة معروفة عدة أبحاث قمتُ بها .. شاركتُ في أكثر من مؤتمرٍ علميٍّ، وحصلتُ على زمالة عددٍ من الجمعيات العلمية الهامة، وقضيتُ أوقات راحتي كلها في البحث وتطوير ذاتي حتى أعوض الوقت الطويل الذي أهدره بلا طائلٍ في العمل .. بعد عدة سنوات تحصَّلتُ أخيرًا على جائزة علمية مرموقة على مستوى الدولة لتفتح لي طريق الشهرة .. وفي العام نفسه أنجبت زوجتي ابننا الوحيد .. قبل أن أحصل بعدها بعامين على منحة من مؤسسة أجنبية شهيرة وأتفرغ تمامًا للبحث العلمي .. قمتُ بالانضمام إلى فريق عملٍ من المتخصصين .. وبعد ثلاث سنوات من العمل الشاق والسهر حتى الصباح سواء في معمل الجامعة أو معملي في المنزل، اكتشفت ترِياقًا لـ□يروسٍ قليل الانتشار، لكنه حصد كثيرًا من الأرواح في عددٍ من الدول الأفريقية الفقيرة .. أجرينا كافة الاختبارات اللازمة، وخضعنا لكافة المعايير الصحية المطلوبة تحت إشراف جهاتٍ علميةٍ دوليةٍ قبل الإعلان عن الترياق .. ولم يمر العام حتى حصلنا على جائزة دولية مرموقة في مجال العلم وبدأتُ أحظى أخيرًا باهتمام الدولة .. تم تكريمنا من جهاتٍ عِدَّة .. ولكن المفاجأة حقًا كانت ترشيحنا في العام التالي لنيل جائزة الجمعية الدوائية البريطانية؛ أحد أهم الجوائز في مجال تخصصنا، والتي يتطلع إليها أي عالمٍ موهوبٍ، وطالما حلمتُ بها .. الفائز

بها دون شكٍ يسطُر اسمه في سجلات التاريخ العلمي بحروفٍ من ذهبٍ يصعب مع الزمن محوها .. لم يحصل عليها سوى العباقرة وكبار العلماء ممن دُرست نظرياتهم لسنواتٍ .. بالتأكيد حصولي عليها يضعني في مكانةٍ واحدةٍ معهم، بل ويرفع أسهمي للحصول لاحقًا على جائزة نوبل في الطب، أكبر الجوائز في مجال تخصصنا .. لم أصدق نفسي

ورغم أني لم أفز بالجائزة وقتها .. إلا أن حماسي لم يفتُر .. بل بدأتُ أقضي وقتًا أكبر في العمل على حساب أسرتي .. اقترابي من حلمي جعلني لا أرى سواه .. والهدف الذي ظننته مستحيلاً كدتُ أن ألمسه بيدي .. لذا زاد عزمي وإصراري .. وعملتُ بجهدٍ من أجل العودة لدائرة الترشح للجائزة مرة أخرى.

في السنوات الخمس الأخيرة لم أترشح للجائزة لكني اقتربت أخيرًا من تحقيق حلمي .. بعد أشهرٍ طويلةٍ من العمل المضني اقتربتُ من التوصل إلى علاجٍ لـ□يروسٍ آخر .. □يروسٍ انتشر بسرعةٍ في الفترة الأخيرة وحصد كثيرًا من الأرواح، وبات يُسبب هلعًا متزايدًا خاصةً أنه بدأ ينتقل للإنسان عن طريق عددٍ من الحيوانات المصابة بالعدوى، غالبًا عن طريق اللمس مع كائنٍ مصابٍ والاحتكاك به .. كل ما تمَّ التوصل إليه علاجاتٍ لتخفيف حدة المرض وتقليل أعراضه المؤلمة دون القضاء عليه .. بالإضافة إلى دواءٍ ما زال يخضع للتطوير، ولم يثبت مختبريًا بَعْد مدى سلامته للاستخدام البشري .. بعد أبحاثٍ استمرت عدة أشهرٍ قاربتُ أخيرًا من التوصل إلى نتائج إيجابيةٍ .. في ذلك اليوم واصلتُ العمل في المعمل دون أن أشعر بالوقت .. لم يحضر أي من أفراد فريق البحث .. غدًا بداية إجازة العيد التي ستمتد لأربعة أيامٍ ويبدو أن كلاً منهم يرغب في تمضية الأمسية مع عائلته .. أتفهم ذلك جيدًا.. أثناء انشغالي وصلتني رسالةٌ من زوجتي .. كتبت فيها باختصار «لا تنس أن تعود مبكرًا الليلة» .. لم توضح السبب .. تجاهلتُ الرسالة وواصلتُ العمل حتى وقتٍ متأخرٍ ..

أصابني الإرهاق .. تطلعتُ لصورة الجائزة التي حصلتُ عليها، فاستعدت نشاطي سريعًا .. عدتُ للعمل بنشاطٍ أكبر لكن بعد ساعةٍ ضربني التعب ولم أستطع المواصلة، خاصةً بعد أن أرسلت زوجتي رسالةً أخرى تطالبني بالعودة مجددًا.. لا أعلم ما الذى دهاها تلك الليلة .. ولأني بدايةً من الغد لن أتمكن من القدوم إلى معمل الجامعة بسبب الإجازة الطويلة .. قررتُ استكمال أبحاثي في معملي داخل المنزل كالعادة .. هناك كل التجهيزات التي أحتاجها، وسأكون أيضًا وسط أسرتي حتى لا تواصل زوجتي تعنيفي كعادتها بحجة أني بعيدٌ عنهم .. جمعتُ بعض الأدوات وقليلاً من المواد التي أحتاجها .. اخترتُ عينةً؛ كلبًا صغيرًا في البداية ولكني خفتُ أن يزعج بنباحه زوجتي، فاخترتُ هرًا أبيضًا متوسط الحجم وضعتُه بحرصٍ شديدٍ داخل صندوقٍ خاصٍ مجهزٍ .. اكتشفتُ أثناء العودة أن الطرق كلها مزدحمةً رغم تأخر الوقت .. قضيتُ ساعاتٍ على الطريق .. هكذا تبدو طرقنا دومًا في أمسيات الأعياد .. على الأقل أمتلك الآن حجةً مناسبةً يمكنني أن أبرر بها تأخري .. دخلت المنزل بعد منتصف الليل بساعةٍ ليستقبلني الهدوء التام .. زوجتي خلدت للنوم كما يبدو .. توجهتُ للمعمل .. أعددتُ كوبًا من القهوة المُركَّزة وعملتُ بجهدٍ لمدة ساعتين حتى ثقلت جفوني ولم أعد بقادرٍ على التركيز أو المواصلة .. قررتُ التوقف، اتجهتُ لغرفتي أجرجر قدماي بصعوبة .. زوجتي نائمةٌ كطفلٍ برئٍ أدرك أنه سينقلب لوحشٍ هائجٍ غدًا عندما تراني .. تطلعتُ إلى الساعة .. الثالثة صباحًا.. اندسستُ في الفراش بهدوءٍ وسرعان ما غلبني النوم.

في الصباح استيقظتُ على قبلةٍ من زوجتي .. فتحتُ عيناي بكسلٍ .. قابلتني بابتسامةٍ ثم انحنت لتطبع على جبيني قبلةً أخرى أكثر حنانًا .. لم أنبس بكلمةٍ رغم دهشتي .. همست لى بعذوبةٍ ساحرةٍ وهي تغادر:شكرًا أنك لم تنس عيد ميلاد ابننا.

استعاد عقلي نشاطه دفعةً واحدةً .. يا إلهي .. الآن فقط تذكرتُ .. بالأمس كان حفل عيد ميلاد ابني .. لهذا كانت تطالبني بالعودة مبكرًا .. ورغم أنها حرصت طوال الأسبوع الماضي أن تُذكِّرني بالموعد وبصورةٍ يوميةٍ، لكن تاه الأمر عن ذهني تمامًا .. راقبتُ زوجتي وهي تغادر الغرفة بخفةٍ .. جلستُ في الفراش لدقيقةٍ دون أن أنهض محاولاً استيعاب حجم وفداحة الخطأ الذي ارتكبته .. تلومني زوجتي الآن بطريقةٍ جديدةٍ كما يبدو بعد أن استنفذت كل الطرق .. توبخني بسخريةٍ لتُشعرني أكثر بالذنب .. نهضتُ متثاقلاً وأنا أشعر بالضيق .. من المؤكد أن ابني يتملكه الغضب مني الآن .. نسيتُ عيد ميلاده السابق والآن يتكرر الأمر، وعدته بهديةٍ لائقةٍ وانتظر ذلك بشغفٍ .. انتابني إحساسٌ مزعجٌ بالخجل لم أفلح في التخلص منه .. توجهتُ للحمام .. وقفتُ أمام المرآة لثوانٍ أعاتب نفسي بصوتٍ عالٍ على إهمالي .. ثم قررتُ أن أتوجه إلى غرفة ابني لأعتذر له، وأحاول أن أجد عذرًا ما يُبرر مخالفتي لوعدي السابق له

مشيتُ على أطراف أصابعي بهدوءٍ وأنا أفكر دون جدوى في عذرٍ مقبولٍ .. خشيتُ أن يكون نائمًا.. فتحتُ الباب بحذرٍ .. لم تكن الغرفة مظلمةً، وسمعت صوته وهو يلهو .. استجمعتُ شجاعتي .. خطوت للداخل بترددٍ وأنا ما زلتُ أفكر فيما سأقوله .. لمحت الصغير يفترش أرضية الغرفة ويوليني ظهره .. بمجرد أن سمع وقع خطواتي حتى التفت مبتسمًا.. تلك الابتسامة الصغيرة الساحرة .. كان في وسط الغرفة تمامًا تحوطه مجموعةٌ من الألعاب .. يلهو بسعادة .. وعلى مقربةٍ منه يستقر هرٌ أبيض متوسط الحجم يداعبه بمرح .. نهض مسرعًا نحوي يحتضنني بحماسٍ طفولي بمجرد أن اقتربتُ، ويشكرني بكلماته المتلعثمة على هديتي له .. تطلعتُ لوهلةٍ نحو الهر دون أن أفهم .. بدا شكله مألوفًا .. في الواقع كان منظره مألوفًا إلى حدٍ بعيدٍ .. تذكرتُ كل شئٍ دفعةً واحدةً، جحظت عيناي على الفور .. تطلعتُ بهلع إلى صغيري البرئ الذي يبدو سعيدًا للغاية، وهو يواصل احتضاني بقوةٍ.

شبح

"لا يمكن لأي شبحٍ أن يخيفني .. لا أؤمن ببساطة بوجود الأشباح"

قالها بثقةٍ، بينما ترمقه عيون ثلاث سيداتٍ في المطعم الأنيق بإعجابٍ ..

كان في الأسكندرية لتغطية حادثٍ كبيرٍ، انتهى منه ليقرر المبيت للاستمتاع بنسمات الإسكندرية رغم برودة الجو بعيدًا عن أجواء القاهرة المشحونة بالتوتر والعمل .. ما كاد يستريح حتى تلقَّى اتصالاً من جريدته لتغطية حادثٍ آخرٍ، اضطر أن يهرع إلى المكان على الفور، انتهى من تغطية الحدث قبل منتصف الليل بساعةٍ، اكتشف أنه لم يأكل شيئًا منذ الصباح، فتوجه إلى أقرب مطعمٍ قابله

جلس مرهقًا .. رسالتان من أمه لم يرد عليهما .. طالما عبَّرت له عن قلقها لتأخر زواجه .. تجاوز منتصف الثلاثينات من عمره دون زواجٍ؛ لما لا وهو لا يكاد يستقر في مكانٍ، والعمل يمتص وقته. خاصةً بعد أن ترقى عدة مراتٍ في السنوات الأخيرة .. ومنذ انتحار حبيبته فشل في كل علاقاته العاطفية، وانجذب أكثر إلى عالم الغموض .. أصدقاؤه المقربون يتندرون عليه، يقولون أنه لم يعد يصلح للزواج بعد كل تلك المغامرات الجنونية الحمقاء التي خاضها .. تخصص من فترةٍ طويلةٍ في تغطية أخبار الحوادث وكل ما هو غامضٌ، جرأته أكسبته شهرةً كبيرةً، قدَّم عدة تحقيقاتٍ تتسم بالشجاعة حد التهور .. بيوتٌ مسكونةٌ ودجالون وسرقةُ مقابرٍ وسحرٌ أسودٌ .. صفحته على مواقع التواصل الاجتماعي يتابعها أعدادٌ متزايدةٌ من القراء، وظهر في عدة برامجٍ تلفزيونيةٍ حققت شهرة كبيرة

تطلع حوله .. بدأ المطر ينهمر، عددٌ محدودٌ من الزبائن داخل المطعم المتسع؛ الأسكندرية تكاد تخلو-إلا من قاطنيها-في الشتاء .. لفت انتباهه ثلاث سيدات يجلسن على مائدةٍ قريبةٍ، امرأةٌ شابةٌ وأخرى في بداية الخمسينات وعجوزٌ ترتدي السواد، ثلاث أجيالٍ مختلفة من النساء، ربما ابنة وأمها وجدتها، وقد ارتدين ملابسًا خفيفةً رغم برودة الجو .. ربما من أهل المدينة الساحلية واعتدن على برودة طقسها في الشتاء .. أو لعل الجو الدافئ داخل المطعم أغراهن بالتخفف من ملابسهن قليلاً.

تلقَّى اتصالاً من رئيس التحرير، التغطية سيئة داخل المطعم، توجه إلى نافذةٍ قريبةٍ وفتحها في محاولةٍ كي يسمع أفضل، بمجرد أن فعل حتى هبت نسمةٌ قويةٌ من الهواء البارد لتطيح ببعض مفارش الطاولات، رمقه زبائن المطعم القليلين بغضبٍ، تمتم ببضع كلمات اعتذارٍ لم يسمعها أحد، أسرع بإغلاق النافذة، عاد لمائدته خجلاً، مر بطاولة السيدات فقرر التوقف للاعتذار فطاولتهن كانت الأقرب للنافذة .. قابلت السيدة الشابة اعتذاره بابتسامةٍ جميلةٍ، بدا حسنها مميزًا عندما اقترب منها .. بعض النساء لا تدرك مقدار ما يتمتعن به من فتنةٍ وجمالٍ إلا عن قربٍ حقًا .. لاحظ أنها تُحدق به قليلاً .. تأكد من ظنه عندما أخرجت جريدةً مطويةً من حقيبتها، أشارت إلى أحد مقالاته القديمة .. بدت مرتبكةً وهي تسأله إن كان هو كاتب المقال حقًا .. ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ وهو يهز رأسه بالإيجاب.

دعته على الفور إلى طاولتها، دار الحوار شيقًا بين ثلاثتهن وبينه فلم يشعر بالوقت .. اكتشف أنها تتابع معظم ما يكتبه، بل وشاهدته كثيرًا في التلفاز .. تحدثت بإعجابٍ كبيرٍ عنه، قبل أن يتطرق الأمر لآخر مغامرةٍ خاضها عندما قرر المبيت في منشأةٍ مهجورةٍ .. مصنعٌ كبيرٌ هجره أصحابه منذ فترةٍ طويلةٍ ووقعت به أكثر من جريمةٍ ليتردد أن المكان مسكونٌ، لكنه أصر على تكذيب ذلك وقضى ليلةً هناك بمفرده تمامًا ..

سألتهُ إن كان قد خاف من الأشباح وقتها، تراجع في كرسيه، أجاب بهدوءٍ بأنه لا يؤمن بوجود الأشباح، سادت لحظة صمتٍ، قبل أن تقطعها قائلةً:

- لكن الأشباح موجودةٌ بالفعل .. أشعر بها.

اعتدل في كرسيه دون أن يعلق .. سكتت لبرهةٍ، ثم أردفت:

- لدينا شقةٌ قديمةٌ بالقرب من هنا .. اضطررنا لإغلاقها مؤخرًا والانتقال للإقامة في مكانٍ آخرٍ، لا أحد يقطنها الآن أو يدخلها بسبب وجود شبحٍ فيها .. لم يره أحدٌ حقًا لكنه موجودٌ .. نستيقظ صباحًا لنجد الشقة في حالة فوضى .. نسمع أصواتًا من الحمام والمطبخ وغرفة النوم المغلقة في أوقاتٍ متفرقةٍ وكأن أحدهم هناك .. نُحكم إغلاق النوافذ لنعود فنجدها مفتوحةً، وكذلك الستائر، ويتناثر رماد السجائر على السجاد رغم أنه لا يوجد بيننا من مُدخنٌ .. دولاب الملابس نجده مفتوحٌ أحيانًا والملابس مبعثرة في كل مكان .. والأغرب، التلفاز الذي يُفتح في أوقات بعض المباريات من تلقاء نفسه .. الشبح لرجلٍ كما أعتقد .. ربما لجدي الذي مات في الشقة من فترةٍ طويلةٍ وورثناها عنه، كان يهوى مشاهدة المباريات .. لا أعتقد أن شبح أنثى سيعود من الآخرة لمشاهدة مباراة كرة قدم حمقاء .. استقدمنا كثيرًا من الناس دون أن نفلح في طرده، جربنا كل الطرق بلا جدوى .. ورغم أن الشقة عزيزةٌ علينا، وقضيتُ بها أجمل أيام عمري، لكننا اضطررنا للتخلي عنها، ولم نعد ندري كيف نتصرف

ظل يراقب وجهها وهو يتوهج بالانفعال .. سكتت لبرهة، تنهدت وهي تعتذر عما قالته، حاولت أن تبتسم لكنه لاحظ الألم يعتصر وجهها بوضوحٍ .. شعر بغصةٍ في قلبه، وجد نفسه يندفع في لحظة انفعال فيؤكد:

- لا يوجد أشباح .. صدقيني .. ولأُثبت لك وبصورةٍ مؤكدةٍ صحة كلامي .. سأقضي الليلة هناك.

شهقت بخوفٍ حقيقيٍ .. ردت سريعًا بفزعٍ:

- لا .. آخر مرة كاد الأمر يتسبب بكارثةٍ بعد أن شممتُ رائحة غازٍ عندما قررتُ المبيت هناك بمفردي .. يمكن أن يؤذيك الشبح.

ابتسم قائلاً بثقةٍ:

- الأشباح لا تؤذي .. لا وجود لها كما تظنين.

لم تنجح محاولاتها أن تثنيه عن عزمه، كان قد صمم على الأمر، ربما يعُدها مغامرةً جديدةً يُثبت فيها وجهة نظره عن الأشباح ويبرهن على جرأته، ويسردها لاحقًا للقراء لتُرسخ شعبيته بينهم .. منحته العنوان بعد ترددٍ طويلٍ، أكَّد لها قبل أن ينصرف أنه سيُحدثها في الصباح الباكر لطمأنتها .. أحكم لف الوشاح حول عنقه قبل أن يغادر المطعم قبل منتصف الليل بقليلٍ.

توجه متثاقلاً إلى العنوان .. وصل دون صعوبةٍ .. لم يجد حارس العقار، والمصعد معطلٌ .. بداية غير مبشرة لكنه لن يتراجع .. يمكنه أن يقضي الليلة في أي فندقٍ ثم يعود صباحًا ليخبر صاحبته أن الشقة آمنة .. لا يوجد شهود لتكذيبه .. لكن القصة أثارت فضوله حقًا .. وجد المفتاح كما وصفت له، أسفل وعاءٍ من الزهور أمام باب الشقة .. تردد لبرهةٍ .. فتح الباب، فلم يصدر أي صوتٍ .. عادةً تصدر أبواب تلك الشقق صريرًا عاليًا، ربما بسبب قلة الاستخدام .. استقبلته رائحة عفونة على الفور، لم تكن قوية لكنها ملحوظة .. الشقة غارقةٌ في ضوء الردهة الضعيف، وتضربها الفوضى كما يرى .. أنار ضوء الصالة .. بضع لمباتٍ محروقةٍ لكن الإضاءة جيدة .. لدقائقٍ استكشف المكان ببطءٍ .. الشقة كما وصفتها له تمامًا، غرفتان للنوم وصالة واسعة، تبدو الغرف أنيقة وغير مستعملةٍ عكس الصالة، وهناك طبقة خفيفة من التراب تعلو أثاث المنزل كله .. يبدو أنهم تركوا الشقة على عجلٍ آخر مرةٍ فلم يكن هناك وقتٌ لتنظيفها،

أو لعل الفوضى سببها من استعانوا به لطرد الأشباح، لكن هناك أوانٍ وأطباقٌ في حوض المطبخ تم استعمالها حديثًا ولم يتم تنظيفها بعد، أثار الأمر حيرته لثوانٍ .. هز كتفيه بلا مبالاةٍ .. توجه نحو الحمام ليُفرغ مثانته .. ثم قرر أن يبيت في أحد غرف النوم .. اختار الغرفة الأكبر .. أغلق الباب خلفه .. ابتسم بسخريةٍ .. ها هو قد تحصَّل لنفسه على مكان للنوم، ودون مقابلٍ .. لا يستهويه المبيت في الفنادق على أي حال .. تطَّلع إلى ساعته .. خمس ساعاتٍ فقط قبل قدوم الصباح، لن يكون الأمر صعبًا .. كان ينوي السهر، لكن بضع رسائلٍ قرأها على جواله كانت كفيلةً بأن تثقل جفونه .. حل عليه التعب فجأةً .. أزاح الغطاء وغرق في لجة النوم سريعًا.

استيقظ مذعورًا .. أصواتٌ وجلبةٌ في الشقة دفعته لذلك، يسمعها بوضوحٍ تامٍ .. بحث عن جواله سريعًا .. الثانية صباحًا .. وبطارية الموبايل تحتضر.

اعتدل على السرير على الفور .. طار النوم من عينه فجأةً .. الأصوات قادمةٌ من الصالة .. هز رأسه بعنفٍ .. لعله واهمًا وما زال تحت خدر النوم، لكن الأصوات تتصاعد بوضوحٍ قاضيةً على أي شكٍ لديه .. أزاح الغطاء .. نهض ببطءٍ .. ضربات قلبه تتزايد .. ويشعر ببرودة أطرافه .. هل يخرج؟ .. وجد نفسه عاجزًا تمامًا عن التفكير، والأهم الحركة .. عاد لينكمش في مكانه .. الأصوات ما زالت تتعالى لتُثير فزعه أكثر .. من الحمام كما يبدو .. ثم المطبخ، والصالة أخيرًا .. انتفض جسده مع صوت تحطم زجاجةٍ، فقد أعصابه والأصوات تقترب من الغرفة ثم تتراجع .. يغمر جسده العرق رغم برودة الجو .. تمالك نفسه قليلاً، تحرك باتجاه الباب .. اختفت الأصوات لثوانٍ .. كتم أنفاسه تحسبًا .. لكنها عادت سريعًا أعلى من السابق .. لم يعد هناك مجالٌ للشك .. تراجع إلى أقصى الغرفة، التقط ملابسه الملقاة بإهمالٍ على كرسي بجوار الفراش وارتداها على

عجلٍ .. لأول مرةٍ يتعرض لموقفٍ مماثلٍ؛ في كل تحقيقاته السابقة تنتهي الليلة كما بدأت .. خرافات تتضخم لا تلبث أن تتلاشى تحت مجهر التجربة .. لكن ما يحدث هنا مختلف، يواجهه لأول مرة، وهو ما يزيد فزعه وارتباكه .. دقات قلبه تتسارع .. جال ببصره جاهدًا في الغرفة المظلمة يبحث عن شئٍ يمكنه أن يدافع به عن نفسه وقت الحاجة .. لم يجد .. خلع حزام بنطاله بحرصٍ، قام بلفه حول يده وأبقى الجزء المعدني حُرًا ليلوح به كسلاحٍ عند الحاجة .. ثم وقف يترقب ما سيحدث

لدقائق قليلة تواصلت الضجة .. بدأت أعصابه تنهار تدريجيًا .. لعن نفسه لقبوله مخاطرة كتلك .. بدا عاجزًا عن التفكير برَوِيَّةٍ .. هل يُبادر فيقتحم الصالة ومنها إلى الباب الخارجي للهرب والنجاة أم يظل في مكانه؟ .. ارتاح للخيار الثاني .. لكن الدقائق تمضي ثقيلة ومعها يرتفع سقف مخاوفه حد الجنون .. لا يوجد مخرج من الغرفة سوى نافذة صغيرة لا يمكنه استخدامها خاصةً أن الشقة في الدور الخامس، ولا يمكنه الصراخ طلبًا للنجدة وشبحٌ يترصده بالخارج .. ربما بعض اللصوص هم سبب الجلبة، استغلوا خُلو الشقة من قاطنيها، ولكن لما لم يغادروا المكان حتى الآن أو يقتحموا غرفة النوم بحثًا عن مقتنياتٍ ثمينةٍ؟ .. طرد الخاطر من رأسه .. لن يستخدم اللصوص المطبخ والحمام بأي حالٍ .. من يصدر الأصوات يبدو معتادًا على المكان، ويستخدمه بإريحيةٍ كبيرةٍ .. ربما شبح الجد كما قالت الفتاة .. تذكرها الآن .. أخرج هاتفه للاتصال بها، نفذت بطارية الهاتف وهو يحاول .. اللعنة .. ليته انتبه للأمر وهو يقرأ تلك الرسائل قبل النوم، لاحظ وقتها أن البطارية على وشك النفاد دون أن يبالي.

مرت الدقائق ثقيلة .. بدأ الخدر يضرب أطرافه .. لم يعد يجدي الانتظار .. مازالت هناك ساعتين على الفجر، ولن يتحمل رعب الانتظار أكثر من

ذلك .. يدرك الآن أن الهرب هو الحل الوحيد .. يريد فقط أن يصل للباب الخارجي، ومنه للشارع بحثًا عن النجاة بحياته.

قرر المخاطرة .. الخوف الشديد يمنح الجبناء الجرأة المطلوبة أحيانًا .. تقدم نحو الباب ببطءٍ .. وضع يده على مقبض الباب، وقف لبرهةٍ يستمع بحرصٍ .. لا أصواتًا في الخارج .. زفر أنفاسه بقوةٍ .. فتح الباب بحذرٍ شديدٍ .. الصالة شبه مظلمة، وباب غرفة النوم الأخرى مفتوح، لكنه لم يرَ أحدًا .. استجمع قواه .. عدة أمتار بسيطة تفصله عن الباب .. وعن نهاية ذلك الكابوس الذي زج نفسه فيه بحماقةٍ يقسم ألاَّ يكررها، فقط لو كُتِبت له النجاة .. يتقدم خطوة أخرى باتجاه باب المنزل .. المكان هادئ للغاية .. لما سكنت تلك الضجة اللعينة فجأة؟ خطا خطوة أخرى سريعة .. تعثر بكرسي لم يلحظه .. لعن كل شئ .. ما كاد يرفع رأسه .. حتى اصطدم برؤيته.

ظهر فجأةً من العدم .. شبحٌ رفيعٌ مخيفٌ يقترب منه .. تراجع بسرعةٍ .. لكن الشبح زمجر وانقض عليه .. لم يجد بُدًا من الدفاع عن نفسه، عثرت يداه على أحد الإكسسوارات، أمسكها بقوةٍ، قذفها نحو الشبح دون أن تصيبه .. ثم رفع الكرسي الذي تعثر به عاليًا دون وعيٍ .. تراجع حتى التصق بالحائط وهو يرتجف، قبل أن يهوى بالكرسي يائسًا على الشبح الذي يواصل الاندفاع نحوه .. ترددت صرخة عالية سمعها الجيران بوضوح، و ..

عندما جاءت الشرطة عاينت المكان سريعًا .. كان ما زال في حالة ذهولٍ وجسده يرتجف قليلاً ويتلعثم في الكلام، لولا الجيران لارتكب جريمة قتلٍ بحماقةٍ .. تطلَّع لضحيته، لم يدرك إلا بعد فوات الأوان حقًا أنه اعتدى على صاحب الشقة، وبقسوةٍ .. تيقن بما لا يدع مجالاً للشك أنه وقع ضحيةً لعملية نصبٍ أو مقلبٍ سخيفٍ قد يكلفه الكثير.

نقلوا الرجل إلى المستشفى .. لم يكن هناك شبحٌ كما توهم .. عاد صاحب الشقة من عمله متأخرًا ليتفاجأ بغريبٍ يحاول التسلل من المكان، وعندما حاول أن يوقفه، تعرض لاعتداءٍ عنيفٍ على يديه

لم يجد ما يقوله أمام الضابط .. موقفه سخيفٌ بالفعل .. ولن يزيده غرابةً بتفسيرٍ غير قابلٍ للتصديق عن سبب وجوده في الشقة، ربما يتهمه الضابط بالجنون، وقد تثير روايته للحقيقة سخريةً واسعةً منه لاحقًا لتقضَ على سمعته ككاتب .. لزم الصمت تمامًا .. لن يصدقه أحدٌ على أي حال .. وحده الخاسر في كل الأحوال، والصمت يُجنبه خسارةً أكبر.

قضى ليلته في الزنزانة .. في الظهيرة أفرجت عنه النيابة بضمان محل إقامته بعد أن تدخل رئيس التحرير فور علمه بالأمر وقام بالتواصل سريعًا مع عدد من المسؤولين .. خرج مرهقًا، لم يكن هناك مفرٌ رغم ذلك من زيارة الرجل المصاب، إن لم يكن من أجل إقناعه بالتنازل عن المحضر، فعلى الأقل للاعتذار له .. مدينٌ هو له بتفسير لما حدث على أي حالٍ.

تحصَّل على عنوان المستشفى، اشترى باقة وردٍ، توجه لغرفة المصاب، اطمأن من الممرضة على حالته .. تردد قبل الدخول .. ما كاد يدلف ويراه المصاب حتى انتفض .. لكنه أسرع بتهدئته محاولاً الاعتذار عما حدث .. لم يهدأ الرجل المصاب إلا بعد أن كرر الاعتذار عدة مرات، مُؤكدًا أنه جاء فقط لتقديم تفسير لكل ما قام به .. لم يجد المصاب مفرًا من الاستماع إليه، وإن ظل يراقبه بارتيابٍ .. جلس مُحرجًا .. بعد ثوانٍ استجمع شجاعته وحاول أن يشرح الأمر، هز رأسه حانقًا وهو يقول:

- صدقني .. تعرضتُ لعملية نصبٍ بارعةٍ كما يبدو من قِبَل مجموعة من النساء.

حكى كل ما حدث، ولدهشته انتبه الرجل لكل كلمة قالها .. بمجرد أن انتهى حتى طلب منه المصاب وصف للمرأة التي قابلها، فلم يتردد في إجابة طلبه .. رأي بعدها انفعالاتٍ شتى ترتسم على وجه الرجل، قبل أن يهمهم:

- الآن فقط فهمت .. لن تتركني أبدًا.

- من هي؟

- زوجتي .. تلك التي قابلتها في المطعم ومعها حماتي وجدتها.

- ولما قاموا بتلك الحيلة السخيفة؟ ما الهدف منها؟

لم يرد المصاب لبرهة .. التزم الصمت تمامًا .. ثم تنهد قبل أن يقول:

- عليك أن تستمتع للحكاية من البداية .. لا مفر من أن أصارحك كي نصل للحقيقة.

سكت لبرهةٍ وقد بدا عليه الانفعال .. هز رأسه قائلاً:

- من عدة أشهرٍ فقط كنت في طريق العودة مع زوجتي من حفل زفاف أحد أقاربها، وبصحبتنا أمها وجدتها .. لأعترف أني ليلتها كنت أعاني من ثورة غضبٍ عارمةٍ .. لمحتُ زوجتي تتحدث مع ابن عمها بنوع من الدلال، رغم أني حذرتها من الأمر خاصةً أنه كان خطيبها السابق وتعلم كم أغار عليها .. لعلها فعلت ذلك انتقامًا مني لما قمت به .. غادرنا الحفل أبكر من المعتاد .. تجادلنا بصوتٍ عالٍ في الطريق .. أثارت أعصابي .. تعلم كم هي فاتنةٌ للغاية، وبقدر جمالها أغير عليها حد التهور أحيانًا .. لم أحب امرأةً سواها لكنها بعنادها تُصر أن تدفعني للجنون، وتدخلات أمها التي تقيم معنا تزيد الأمر سوءًا .. تشاجرنا ونحن نقترب من المنزل .. خرجتُ عن شعوري وتركيزي .. اقتربنا من تقاطع، لتصدمنا سيارةٌ قادمةٌ بسرعةٍ كبيرةٍ من الجهة المقابلة .. كان يجب أن أنتبه؛ الطريق هناك مظلمٌ دائمًا وحوادثٌ كثيرةٌ تقع عند التقاطع لضعف الرقابة عليه ..

حتى أنهم يطلقون عليه تقاطع الموت .. ماتت حماتي على الفور .. بينما ماتت زوجتي وجدتها بعد أيامٍ من وصولهما للمستشفى .. لم أعرف ذلك إلا متأخرًا بعد أن أفقتُ من غيبوبةٍ استمرت لفترة .. لم أحضُر حتى جنازتها .. عند عودتي للمنزل، بدأت ألحظُ ظواهر غريبة .. أكتشف أن دولاب ملابسها مفتوحٌ والشقة في حالة فوضى كلما عدتُ من العمل .. ظننتُ في البداية أن لصًا اقتحم المكان، لكن لم يسرق شيئًا .. تأكدتُ مع مرور الأيام أنها هي .. عطرها المثير يستقبلني كلما وصلت الشقة .. ملابسها الملقاة في كل مكان .. الستائر التي تحبها مفتوحة رغم أني أغلقها دائما قبل أن أغادر المنزل .. والتلفاز الذي تهوى مشاهدته كثيرًا ويُفتح في أوقات برامجها المفضلة.

لم يُرهبني وجودها، اشتقتُ لها حقًا، قبل أن أتأكد لاحقًا من سبب عودتها .. اكتشفتُ أنها تحاول قتلي، انتقامًا كما يبدو لما حدث .. استيقظتُ ذات صباحٍ على رائحة الغاز تملأ المنزل وكدتُ أهلكُ يومها .. وتعطل المصعد بي مرةً وكاد يسقط .. واستيقظُ أحيانًا في الليل لأجد النافذة مفتوحة رغم برودة الجو، وقد تم إزاحة الغطاء عني .. وها هي أخيرًا تستغل سذاجة شخصٍ غريبٍ، فترسله للتخلص مني .. ربما توقعتُ أن ينشب صراعٌ بيننا يقضي على أحدٍ منا خصوصًا مع متانة جسمانك، لأخسر في كلتا الحالتين؛ سواء قتلتني دفاعًا عن نفسك أو قتلتُكَ لينتهي الأمر بي للسجن، خاصةً أنك دخلت بمفتاح الشقة ولا يوجد ما يؤكد أنك سارقٌ وبالتالي أفقد حجة الدفاع عن النفس .. الحمقاء .. لن تتركني قبل أن ألحق بها .. متأكدٌ من ذلك .. صدقني لو كنت أملك شجاعة الموت لانتحرتُ، على الأقل أتخلص من ذنب ما حدث .. لن تتوقف تلك اللعينة مهما فعلتُ .. حتى لو غادرت الشقة، ستلاحقني في كل مكان .. أعلم كم هي عنيدة.

ـ قلت أنها قبل الحادثة تحدثت مع ابن عمها انتقامًا لما قمت به .. لم أفهم ذلك حقًا.

- قبل الحادثة بعدة أسابيع، اكتشفت زوجتي أني خُنتها، ولم تنسَ ذلك خاصةً أن الأمر كان في الشقة التي تزوجنا فيها، وهي شقة جدها التي نشأت بها، بل وعلى فراش الزوجية .. ورغم أنها غفرت لي بعدها لكننا ظللنا نتشاجر بسبب ذلك من وقتٍ لآخر، وربما خوفي أن ترد لي الخيانة هو ما زاد من غيرتي الحمقاء عليها .. لن تتركني قبل أن أنال الجزاء المناسب لما قمت به، أؤمن بذلك.

لم يصدق ما قاله .. غادر المستشفى بعد تكرار اعتذاره للمصاب .. في المساء عاد للمطعم حيث قابلها .. سأل النادل عنها فلم يتذكر شيئًا .. راجع كاميرات المطعم ليلتها، ليكتشف أن خللاً أصابها طوال فترة مكوثه هناك .. هاتَفها من الرقم الذي منحته إياه، فرد عليه زوجها كما ميزه من صوته ليُنهي المكالمة سريعًا .. كاد يفقد عقله .. من المؤكد أن بالأمر خدعة ما، خدعة اشترك بها عدة أشخاصٍ لتوريطه في فضيحة تنهي مستقبله أو شعبيته ككاتب .. لديه كثيرٌ من الأعداء بالفعل بحكم عمله، وبعضهم على استعداد للقيام بأي شئٍ لتحطيمه، بعد فضح مزاعمهم من قبل أمام الجميع، بل تسبب في زج بعضهم في السجن .. ترقَّب انتشار أنباء تلك الفضيحة لتقضي على سمعته .. لكنه تفاجئ برئيس التحرير يبلغه بعد عدة أيامٍ بتنازل المصاب عن البلاغ ضده، فعل ذلك من تلقاء نفسه، ولم يتم تسريب الأمر لوسائل الإعلام كما توقع، مما زاد من حيرته

عاد لعمله، لم ينسَ ما حدث لكنه انشغل كثيرًا فلم يعد يفكر في الأمر أو يستعيده إلا قليلاً .. بعد عدة أشهرٍ تفاجئ بخبر صغيرٍ في الجريدة، لم يلفت الخبر انتباهه وإنما الصورة التي نُشِرت معه؛ الرجل المصاب، يميزه جيدًا رغم أن الصورة التُقِطَت كما يبدو في مرحلةٍ أبكر من عمره، حيث السواد يغطي شعره والتجاعيد لم تغزُ وجهه بعد .. طالع ما كُتِب سريعًا، تُوفي إثر حادث سيارةٍ على تقاطع الموت كما يطلقون عليه، الغريب أنه

لم يكن هو السائق وقتها، كان يجلس بجوار أخته عندما انحرفت عجلة القيادة منها فجأةً لتصطدم بحافلةٍ، لم تتعرض أخته لإصاباتٍ قويةٍ رغم قوة الصدمة، ربما بسبب ارتدائها حزام الأمان، بينما مات الرجل على الفور .. اتصل بمحرر الخبر وتحصَّل على بعض التفاصيل .. توجه للأسكندرية على الفور .. توجه إلى العنوان الذي تحصَّل عليه من المحرر، قابل أخت الرجل بحجة مواساتها بعد أن زعم أنه صديقٌ قديمٌ للفقيد .. سألها عن الحادثة بصورةٍ عفويةٍ، أخبرته وهي تبكي أن أخاها حرص على ارتداء حزام الأمان كعادته بعد ركوب السيارة مباشرةً، لكنها سمعت صوت فتح الحزام فجأةً عند التقاطع، وقبل أن ينجح أخيها في إعادة تثبيت الحزام مرةً أخرى، وقع التصادم فجأة، ليلقى مصرعه ببشاعةٍ..

انتهى فعاد للقاهرة في اليوم نفسه رغم إرهاقه، يعيد التفكير طوال الطريق فيما حدث .. لم يجد أي تفسيرٍ سوى أن المرأة حققت انتقامها بالفعل .. يؤمن أخيرًا أن زوجها على حقٍ ..عنيدةٌ هي حقًا .. تمامًا كحبيبته السابقة، التي هددته بالانتحار إن تخلى عنها .. وعندما انفصل عنها بالفعل إثر خلافاتٍ متكررةٍ بينهما بسبب غيرتها الشديدة عليه، ورفض بعدها كل محاولات لم الشمل بل فكَّر في خطبة امرأةٍ أخرى، حتى فاجأته بتنفيذ تهديدها، ليغرق في مشاعر ندمٍ لم تفارقه حتى تلك اللحظة .. وها هو بعد سنواتٍ طويلةٍ من رحيلها، لم يرتبط بأي امرأةٍ بعد أن فشلت كل علاقاته العاطفية اللاحقة لأسبابٍ شتي، وبعضها غريبٌ للغاية .. لعلها تنتقم منه هي الأخرى .. وتُواصل من سنواتٍ تسميم حياته حقًا كما يليق بعنادها .. لم يعُد يدري .. لن يوقفها شئٌ لو كان الأمر كذلك، يعرفها جيدًا .. سيحاول رغم ذلك التوقف عن التفكير في الأمر .. سيتخلى تلك المرة عن سعيه الدائم لاكتشاف الحقيقة بأي ثمنٍ .. يدرك أخيرًا أنه من الحماقة حقًا أن يسعى جاهدًا لاكتشاف حقيقةٍ قد لا يمكنه تحمل ثقلها .. وفي اليوم التالي، بمجرد أن يذهب إلى العمل، سيطلب بإلحاح نقله إلى قسم الرياضة .. لم تعد أعصابه تحتمل العمل في قسم الحوادث على أي حالٍ.

صديقٌ قديمٌ

غير معقولٍ ..

أيُمكن أن يكون هو؟ ..

رأيتهُ بالمصادفة .. وكأن أحدهم ألقى إليَّ بطوق نجاةٍ ..

تعثرتُ به وأنا غارقٌ لأذناي في دوامة روتين حمقاء لا أكاد أجد لها مخرجًا ..

لم أصدق عيني وقتها .. يبدو كموظفٍ في البنك ..

كنتُ في البنك أحاول-ربما للمرة العاشرة-إنهاء إجراءات قرضٍ صغيرٍ يُنقذ تجارتي من الانهيار ..

ورغم استيفاء جميع الأوراق .. إلا أن أحدهم عطَّل الموافقة النهائية، فلم أحصل على القرض حتى الآن، رغم ضآلة المبلغ الذى طلبته، وكل الضمانات الكافية التي قدمتها، لأغرق بعدها في متاهة إجراءات روتينية لا تكاد تنتهي ..

تذكرته على الفور رغم مرور كل تلك السنوات .. كنا أصدقاءًا طوال مرحلة دراستنا الابتدائية، بل جيرانًا وأعز أصدقاءٍ في الواقع لفترةٍ طويلةٍ، قبل أن ينتقل مع أسرته لمنطقةٍ أخرى لتنقطع صلتي به.

اقتربتُ من مكتبه بحماسٍ شديدٍ، وحده يمكن أن يساعدني، كما أني أشعر باشتياقٍ أيضًا للتحدث معه ومعرفة أحواله .. تقدمتُ سريعًا دون تفكيرٍ .. لكني توقفتُ فجأةً في منتصف الطريق .. هل يعقل؟ .. نسيتُ اسمه! لم يعد بإمكاني تذكره في تلك اللحظة .. ذاكرتي الحمقاء تعاندني .. عصرتُ

ذهني دون جدوى .. غير معقولٍ .. لا يمكن أن أنسى اسمه هو بالذات .. وكأننا لم نكن أصدقاءًا مقربين لسنواتٍ طويلةٍ .. تراجعتُ قليلاً في محاولةٍ للتذكر ..

ما زلتُ أتذكر أول يومٍ جاء فيه إلى المدرسة .. كنتُ قد سبقته إليها بعامٍ كاملٍ .. انتقل هو وأخوه الأكبر إلى مبنى مجاورٍ وبعدها بعدة أيامٍ أنهى والده إجراءات ضم طفليه إلى مدرستنا .. يومها دخل الصف مرتبكًا.. لم يكن هناك سوى مقعدٍ واحدٍ فارغٍ بجانبي في نهاية الصف .. في الواقع كنت مُعاقبًا من قِبَل المعلمة يومها كالعادة بسبب مشاغباتي، فأرسلتني لنهاية الصف، على الأقل لترتاح من رؤية وجهي الذي يُثير عصبيتها- كما تقول-.. جلس يداري خجله بعد أن استاذنني بصوتٍ متلعثمٍ للجلوس بجانبي .. ضحكتُ عليه في سري، لكن بنهاية اليوم كنا أصدقاءًا ..

أبحث في ذاكرتي دون جدوى، أستدعي كثيرًا من صور ذكرياتنا معًا بلا نتيجةٍ .. أتذكر اسم نبيه صديقنا الثالث .. والذي كان يتمتع بدرجة بلاهة غير طبيعية .. جلس مزاحمًا لنا في العام التالي .. نبيه رغم ضخامة جسمه، ورغم أنه يكبرنا بعامين لتكرار رسوبه، كان أحمقًا ومغرورًا؛ لذا لم نكف عن تدبير المقالب له .. لم أنسَ ذلك اليوم عندما جلب نبيه قلمًا ذهبيًا غالي الثمن، انبهرنا به بطبيعة الحال .. لم نكن نستعمل وقتها سوى أقلام الرصاص .. أبلغنا بفخرٍ أنه تحصَّل عليه من والده .. لساعاتٍ ظل يتباهى بالقلم دون كللٍ .. في نهاية اليوم قررنا عقابه بطريقتنا .. اشترى صديقي في اليوم التالي مظروفًا صغيرًا أنيقًا من مصروفه، بينما ابتعتُ وردةً بلاستيكيةً حمراءًا .. غافلنا نبيه بنهاية الحصة الأولى واختطفنا القلم من حقيبته .. في الحصة التالية دخلت معلمة اللغة العربية الفصل، ليسود الصمت التام بيننا .. نعلم أنها سريعة الغضب وعصاها الرفيعة لا ترحم .. فوجئت المعلمة بالمظروف والوردة البلاستيكية على مكتبها .. نعلم أنها تحب الهدايا .. من نظرة عينيها أدركنا أنها أعجبت بالقلم ..

قرأت اسم نبيه على المظروف فشكرته على هديته .. احتقن وجه نبيه وهو يرى القلم بين يدي معلمتنا .. لكنه لم يستطع أن ينبس بكلمةٍ .. وبالطبع بعد انتهاء الحصة لم نفلت من عقابه .. لكننا ضحكنا بعدها كثيرًا كلما تذكرنا ما حدث ..

كيف أعجز عن تذكر اسمه؟ .. تبخَّر من ذهني تمامًا.. الغريب أني أتذكر اسم أخيه " يوسف" والذى يكبرنا بعامين .. اعتاد صديقي أن يشكو دائمًا من أخيه .. ربما لأنه يمارس عليه سطوةً أبويةً مبكرةً ويرهقه كثيرًا بطلباته، أو لأنه يضربه أحيانًا عندما يُخطئ .. كان أخوه ضخم الجثة حقًا .. ورغم أن صورة الأطفال ضِخَام الجثة اقترنت في خيالنا كأطفال دومًا بالبلاهة، إلا أنه كان ذكيًا رغم ذلك .. وبالأصح لئيمًا.

عندما فاض الكيل بصديقي من تصرفات أخيه، دبرنا خطةً للنيل منه .. كنا نعلم مدى خوف "يوسف" من معلم الرياضيات .. في الواقع كنا جميعًا نرهبه .. فعصاهُ لا تُفرق بين رأس وقدم طالبٍ ولا تكاد تكُف عن الحركة طالما تواجد طلابٌ في مجال رؤية حاملها .. ذلك المساء زُرت صديقي متأخرًا بعد أن نام أخوه .. سحب دفتر الواجب الخاص بأخيه من حقيبته دون أن يشعر وتسلل ليناولني إياه .. رسمتُ صورةً مضحكةً للأستاذ على الصفحات الداخلية، وكتبتُ بعض العبارات الساخرة منه، وعندما انتهيت أعاد صديقي الدفتر لمكانه .. في اليوم التالي وعندما سأل الأستاذ في بداية كل حصة كعادته على الواجب، سلمه "يوسف" دفتره .. ليتفاجأ الأستاذ بما يحويه .. يومها تم فصله لثلاث أيامٍ عاش صديقي خلالها في سعادةٍ حقيقيةٍ بعيدًا عن سطوة أخيه، وتلقى يوسف "علقة ساخنة" في المدرسة، وداخل المنزل .. ولمدةٍ طويلةٍ ظل يحاول التعرف على الفاعل .. بالطبع اتهم أخيه في البداية لكنه يعلم أنه لا يجيد الرسم، كما أن العبارات الساخرة لم تكن بخط يده الذي يميزه جيدًا، وهو ما زاد من غيظه وسعادتنا بكل تأكيدٍ .. وأعتقد أنه إلى الآن لم يدرك حقًا من الفاعل.

يا إلهي .. كيف أنسى اسمه؟ .. ما زلتُ أتذكر كل شئ تقريبًا عنه وكأننا لم نفترق سوى بالأمس فقط .. أتذكر أنه كان يثور ويغضب عندما يناديه أحدٌ باسم التدليل الخاص به .. اسم كلب في مسلسل أجنبي شهير لا أعلم كيف التصق به .. أتذكر كم مرة تشاجرنا بعد مناداتي له بالاسم وبخاصةً عندما يقع خلافٌ بيننا لأثير غضبه .. الغريب أني أتذكر اسم التدليل جيدًا ولا أتذكر اسم صديقي .. كان لا يحب الخضروات أيضًا بينما تُصر والدته على حشو كل شطائره بالخضروات والحديث عن أهميتها فكان يلتقطها ويرميها، وعندما علم أبيه بذلك طلب من أخيه الأكبر مراقبته أثناء تناوله للطعام في فترات الاستراحة، وهو ما كان يمثل عقابًا لكل منهما حيث يتخلى أخوه بالطبع عن أنشطته المفضلة وقتها لملازمته .. ولم يكن يحب كرة القدم التي كنتُ مهووسًا بها، فكان يكتفي باللعب معنا كحارس مرمى بعد المدرسة عندما يتأخر والده أحيانًا عن اصطحابه .. في أحد المرات كنا نلعب مباراةً حماسيةً وطلبتُ منه حراسة المرمى جيدًا، راوغه أحد اللاعبين من الفريق المنافس لكن قبل أن يسجل الكرة قفز سريعًا لالتقاطها، فركله اللاعب في جبهته دون قصدٍ، يومها نزف قليلاً وترك الجرح ندبةً صغيرةً أعلى جبهته من الناحية اليمنى .. يمكننى أن أرى الندبة بوضوح من مكاني، ليلومني بعدها لفترةٍ طويلةٍ على الأمر .. أتذكر أيضا لونه الأحمر المفضل، وكرهه لارتداء ساعات اليد، والعلكة التي يهوى مضغها طوال الوقت، والتي كان ينفق مصروفه بالكامل أحيانًا عليها، لا أعتقد أنهم يسمحون له بمضغ العلكة في البنك أمام الزبائن .. لكني ألحظ أنه لا يرتدي ساعة يد .. أتذكر أيضًا منزله الذي زرته عدة مرات؛ صورة زفاف والديه وهي تعلو الصالون المُذهب، والنوافذ المغلقة دوماً ربما بسبب خوف والدته عليه حيث عاني صديقي من حساسيةٍ في الصدر لازمته طويلاً فكان استنشاق أي أتربةٍ يدفعه للسعال بشدةٍ، وربما هذا ما دفعهم لتغيير السكن لاحقًا بعد أن تزايد بناء المصانع في المنطقة الصناعية القريبة من مسكننا وبدأت أدخنتها تضايقنا .. دققتُ النظر إلى

مكتبه لعلي أري لافتةً تحمل اسمه فلم أجد .. ابتسمتُ بحنقٍ، نسيتُ اسمه لكن الغريب أني أتذكر اسم أبيه جيدًا، المحاسب في شركة الغزل والذي اعتاد أن يرتدي بذلةً كاملةً مهما كانت درجة الحرارة، ويبدو أن صديقي ورث منه ذلك فها هو يرتدي بذلةً أنيقةً رغم حرارة المكان المزدحم بالمراجعين .. لكنه لم يرث منه كرهه الشديد للكلاب، فصديقي كان مهووسًا بها، وهو ما دفعه لملاحقة كل الكلاب الضالة في منطقتنا بحجة رعايتها، بل أنه راهنني ذات مرة بقدرته على ترويض الكلب البوليسي الشرس الذي يملكه جارٌ لنا .. يومها تسلقنا سور حديقة جارنا وحاول صديقي التقرب من الكلب، وهو ما دفعت ثمنه غاليًا حيث قام الكلب بعضي .. الغريب أن الكلب لم يؤذي صديقي على الإطلاق رغم أنه هو من حاول التقرب منه، ولفترةٍ آلمني الجرح لكني لم أعاتب صديقي بسبب ذلك كثيرًا، حيث أتيحت لي فرصة نادرة للتغيب عن المدرسة لفترةٍ طويلةٍ .. ويوم تسابقنا بالدراجات بعد أن زعم مرارًا أنه أسرع مني مما أغاظني بشدةٍ ودفعني لقبول تحديه لتقطع علينا سيارة مسرعة قادمة من طريق جانبي الطريق فجأةً قبل نهاية السباق، يومها وقعنا معًا وكُسِرَت ذراعه بينما تحطمت دراجتي الصغيرة لأهرع وأبلغ والديه بالأمر وأنا أرتجف .. ولأدخل المستشفى لأول مرةٍ في حياتي وأنا أزور صديقي بعدها بعدة أيامٍ. انتبهتُ فجأةً .. غادر العميل الذى كان يجلس أمامه .. استجمعتُ شجاعتي على الفور .. توجهتُ إليه وأنا ما زلتُ أعصر ذهني دون جدوى .. نهض من مكانه فور أن رآني، تذكرني على الفور رغم الشيب الذي يغزو رأسي واللحية التي تركتُها بإهمالٍ تنمو منذ عدة أيام .. ارتسمت ابتسامة واسعة على وجهه وهو يصافحني بحرارةٍ .. تحادثنا لدقائقٍ وسألني عن أخباري بلهفةٍ .. تجنبتُ قدر الإمكان مناداته باسمه واكتفيتُ بالألقاب العامة، ويبدو أنه لاحظ ذلك .. بعد عدة دقائق سألني عن سبب تواجدي بالبنك فشرحتُ له السبب، وتعثُت البنك في صرف القرض دون أسبابٍ معقولةٍ رغم الضمانات الكافية التي قدمتها .. طلبتُ منه بحرجٍ مساعدتي، فوعدني

بذلك قدر الإمكان .. لم أشأ تعطيله أكثر من ذلك، ما زلتُ أرى العديد من العملاء بانتظاره .. ودَّعني بحرارةٍ قبل أن أنصرف بعد أن قمتُ بتسليمه أوراق القرض .. غادرتُ البنك يومها مبتهجًا على غير العادة لأتوجه سريعًا إلى عملي ..

****

عاد إلى مكتبه داخل البنك المزدحم .. تطلَّع لصديقه الذي يغادر المكان، هز رأسه بأسفٍ وهو يقول لنفسه:

- لا أصدق أنه نسي كل شئ بتلك البساطة .. غير معقولٍ .. يبدو حقًا و كأنه لا يتذكر أي شئٍ عن تلك السنوات من طفولتنا التي قضيناها معا .. اللعين حتى لم يعد يتذكر اسمي .. والآن يطلب ببساطةٍ مساعدتي.

تطلَّع لطلب القرض الذي تركه صديقه، وصور الأوراق الخاصة بالضمانات التي طلبها البنك .. تناول الملف يُقلبه بين يديه لبرهةٍ، فكر قليلاً .. قبل أن يهز رأسه وهو يضع الملف دون اكتراثٍ أسفل مجموعةٍ من الملفات القديمة على مكتبٍ بجواره .. والتي ينوى التخلص منها لاحقًا.

مصادفة

- طوال عمري أؤمن بالمصادفات .. القوة السحرية للقدر التي تُخفي حكمة ما قد لا ندركها على الفور .. من كان يصدق أن تجمعنا صدفةً هنا في الإسكندرية بعد عشر سنواتٍ من آخر لقاءٍ بيننا..

ابتسمتُ وأنا أستمع لصديقي محسن .. قلتُ له بعتابٍ:

- منذ غادرنا الكلية، ألححتُ عليك كثيرًا لزيارتي هنا، لكنك كنت تتعلل دومًا بحججٍ مختلفةٍ ..

- انشغلتُ في العمل وامتصتني الحياة طوال تلك السنوات .. لولا اعتذار أحد زملائي عن السفر للإسكندرية في مهمة عملٍ بسبب مرضه الطارئ، واختيار المدير لي لأحل محله بعد اعتذار أكثر من زميلٍ آخر، لما كنت معك الآن .. مصادفةٌ لا تتكرر كثيرًا .. ولأعترف، كنتُ مخطئًا في عدم تلبية دعوتك من قبل، الإسكندرية رائعةٌ .. أحسدك على وجودك هنا.

ضحكتُ قائلاً:

- لهذا رفضتُ العمل في القاهرة رغم أنهم عرضوا عليَّ راتبًا أكبر .. كنتُ أتمنى أن تلتقي زوجتي أيضًا، لكنها اصطحبت الأولاد لقضاء بضعة أيامٍ مع أمها المريضة ..

- ربما نلتقي جميعًا المرة القادمة التي أزور فيها المكان .. وسأحرص وقتها على اصطحاب زوجتي أيضا ..

أكمل محسن سريعًا وهو يلتقط هاتفه:

- كدتُ أنسى مجددًا؛ يجب أن أتصل بزوجتي للاطمئنان عليها .. بالأمس كانت عصبيةً للغاية لأني نمتُ مرهقًا دون الاتصال بها كالعادة .. ليتها كانت معي الآن ..

ضحكتُ رغمًا عني قائلاً:

- لأنك عريسٌ جديدٌ تقول ذلك .. صدقني .. بعد بضعة سنواتٍ من الزواج ستشتاق حقًا لفتراتٍ من الراحة بعيدًا عن زوجتك .. كيف التقيت بها على أي حالٍ؟

- مصادفةٌ غريبةٌ .. يد القدر جمعتنا بصورةٍ لا تتكرر كثيرًا .. جاءت إلى البنك الذي أعمل به لإنهاء بعض الأوراق .. ومن أول نظرةٍ أعجبت بها، ولم أستطع أن أرفع عيني عنها .. لا يُمكنك أن تعاند القدر عندما يتدخل لصالحك إلى هذا الحد، من الغباء أن تفعل ذلك.

- لكنك تلتقي يوميًا بعشرات العملاء بحكم عملك، وبينهن الكثير من النساء الجميلات دون شكٍ .. ليست مصادفة غريبة.

- نعم .. ولكن كان هناك ستة موظفين خدمة عملاء غيري في البنك يومها، القدر وحده دفع بها إليَّ دون سواي، ما احتمالية أن يحدث ذلك؟ .. ثم أن السيستم تعطل وأنا أنهي المعاملة، مما أتاح لي وقتًا أكبر لتبادل الحديث معها، عادةً لا أتبادل أي أحاديثٍ جانبيةٍ مع العملاء .. كلامي معها زاد من إعجابي بها، وعلمتُ منها بعض التفاصيل مثل مكان عملها ..

- لا أرى ذلك غريبًا .. السيستم لديكم بطئ وأعطاله كثيرة .. تعاملتُ مع فرع البنك لديكم هنا من قبل ..

- على أي حالٍ قررتُ استغلال الفرصة التي أهداها لي القدر .. طوال عمري أحلم بامرأةٍ رائعة الجمال، ذلك الجمال الذي يطغى على الحواس فلا ترى سواه .. والمصادفة النادرة التي جمعتنا جعلتني أتحمس للأمر بصورةٍ أكبر .. تحصَّلتُ على عنوانها من ملفها في البنك .. جمعتُ بعض المعلومات عنها .. ثم قررتُ التقدم إليها على الفور .. وتم كل شئٍ بسرعة لم أتخيلها .. وها قد مر شهرين على زواجنا ..

- من الواضح أنك سعيدٌ معها؟

- نعم، يمكنك قول ذلك .. لا يُضايقني سوى عملها الذي تصر عليه ويستهلك معظم وقتها، وتتمسك به بشدةٍ رغم رفضي للأمر، وزياراتها المتكررة لعائلتها .. لا أخفي عليك، لاحظتُ أيضًا أنها عصبيةٌ بعض الشئ، لكن ربما يكون ذلك بسبب ضغط العمل .. كما أن أذواقنا مختلفةٌ قليلاً، ولا تجيد الطبخ .. لكني سعيدٌ رغم ذلك .. يكفي أن القدر أهداها لي .. و .. و .. غير معقول.

نطقها سريعًا وهو يتطلع إلى نقطةٍ ما خلف رأسي، حيث تقترب ثلاثة فتيات دخلن المكان للتو .. نهض على الفور وصافح واحدةً منهن، تبادل بضعة كلماتٍ معها وقد ظهر على وجهه المرح .. قبل أن تنصرف مع صديقاتها سريعًا بعد عدة دقائق ..

بمجرد أن عاد، سألتُه وأنا أشير للفتاة:

- غريبٌ أن يكون لديك أصدقاء من الإسكندرية .. قُلت لي من قبلٍ أنك لا تعرف أحد هنا..

- لا .. كلانا من القاهرة

- من الواضح أنك تعرفها جيدًا ..

- ليس حقًا، تعرفتُ عليها بالمصادفة فقط من عدة أشهر .. إنسانة رائعة .. ذلك اليوم كنت أنوي شراء هدية لأختي بمناسبة زفافها، أعلم أنها تهوى التحف لذا توجهتُ إلى معرضٍ فخمٍ واخترتُ تحفةً غاليةً؛ تمثالٌ على هيئة فينوس آلهة الجمال .. اقتربت مني ونصحتني وقتها بعدم ابتياع التحفة لأنها ليست مصنوعة يدويًا كما يقولون وخاماتها سيئة .. اكتشفتُ أن لديها خبرة كبيرة بالأمر خاصة أنها خريجة فنون جميلة كما علمتُ منها لاحقًا .. حرصت على أن تقلب التمثال بين يديها حيث رأت الطلاء متآكلاً في أكثر من موضعٍ .. اختارت تحفةً أخرى أجمل وفاوضت البائع بصبرٍ ومهارةٍ حتى خفَّضت السعر إلى النصف ..

- واضح أنها ذكية وجريئة ..

- نعم .. ولديها ذوقٌ رائعٌ، وشخصيةٌ مرحةٌ .. نوعٌ نادرٌ من النساء لا يمكن إلا أن تفتن به.

- تقول أنها من القاهرة ..

- نعم .. جاءت للإسكندرية لقضاء بعض الوقت مع أقاربها، ودخلت المحل هنا لشراء كوبٍ من القهوة ..

- هذا لا يحدث كثيرًا .. تلك ثاني مرة تلتقيها صدفة.

- لا .. ليست ثاني مرة .. في الواقع التقيتها عدة مراتٍ ..

لم أتكلم، فأكمل:

- التقيتُ بها بعد عدة أسابيعٍ في عيادة طبيب الأسنان بعد أن شعرت أمي بآلامٍ في ضرسها .. لم نستطع الحجز مسبقًا كما هو مُتَّبعٌ في العيادة، وتفاجأتُ بها هناك مع أخيها الأصغر الذي يعاني من التسوس، ولم يكن في العيادة سوانا .. لاحظت هي حالة أمي، فسمحت لنا بالدخول قبلها .. وعندما انتهينا، سارعت بالاطمئنان علي أمي .. بل واصطحبتها برفقٍ إلى السيارة بعد أن شعرت أمي بدوارٍ خفيفٍ بسبب البنج .. وتبادلت الأحاديث معها حتى انتهيتُ من شراء الأدوية .. في الواقع، أحبتها أمي كثيرًا رغم أنها لم تلتقي بها سوى لفترةٍ قصيرةٍ .. وهو ما أثار استغرابي .. فأمي دائمة النقد ولا تحب أحدًا بسهولةٍ.. ومازالت تتعامل مع زوجتي بتحفظ كبيرٍ بل وتنتقدها طوال الوقت .. ظلت أمي يومها تدعو أن يرزقني بفتاة رائعة مثلها .. وهو ما تحقق بعدها بعدة أسابيع عندما التقيتُ زوجتي ..

كما أني التقيت بها مجددًا في حفل زفاف ابنة عمتي، من كان يتخيل ذلك، وعلمتُ أنها صديقتها المقربة، بل هي من أشرفت على الحفل والذي خرج بصورةٍ رائعةٍ .. ليتك رأيتها وقتها وهي تشرف على كل شئٍ بنفسها، لديها شخصية قوية وذوق رائع .. وقد تحدثت عنها ابنة عمي بإعجابٍ كبيرٍ.

- غريبٌ ذلك

- وهل هناك أغرب من أن أراها هنا في الأسكندرية؟ فتاةٌ رائعةٌ، من تلك الشخصيات التي تشعر بارتياحٍ غريبٍ عندما تحادثها ..

- وجميلةٌ أيضًا.

همهم صديقي قائلاً:

- ليس حقًا .. أراها متوسطة الجمال .. نسيتُ أن أقول لك أني التقيتُ بها أيضًا وهي تتسوق من فترة، كان ذلك قبل أن أرى زوجتي بعدة أيامٍ فقط، ويجمع بيننا القدر في مصادفةٍ يندر أن تتكرر .. صدقني .. ليس هناك أجمل من أن يتدخل القدر بهذا الشكل، ويجمع بينك وبين شريكة حياتك بتلك الصورة النادرة .. من الحماقة وقتها أن تعاند ذلك الترتيب القدري ولا تستغل الفرصة .. ألا توافقني؟

لوهلةٍ لم أرد على صديقي وقد تولاه الحماس .. تطلعتُ إليه فقط دون كلامٍ.

انتحار

لم أتوقع أن ينتحر سعيد-رئيسي في العمل-أبدًا،

أذهلتني المفاجأة فلم أصدق ما حدث ..

كانت الصدمة قاسيةً عليَّ .. أقسى من قدرتي على تجاوزها بسهولةٍ.

والأسوأ منها، نظرات الاتهام التي أراها تحاصرني طوال الوقت في عيون كل من حولي ..

تشير إليَّ بأصابع الاتهام .. تدينني بقسوةٍ .. وتدفعني ببطءٍ نحو الجنون ..

خاصةً بعد انتشار الشائعات التي تؤكد أنه انتحر بسببي.

ليصاحبني ذلك الشعور اللعين بالذنب من وقتها، يُمزقني ولا أقاومه ..

هل قتل نفسه بسببي حقًا؟

ليتني طاوعته ..

يتعالى الهمس بأسرار حكايتنا تلك الأيام دون مواراةٍ ..

تقدم لخطبتي عدة مراتٍ كما يعلم الجميع، لكني رفضته ..

لم يكن هو فتى أحلامي .. وقلبي لم ينبض معه ..

لم ييأس رغم ذلك ..

تجاوز عن أخطائي في العمل برحابة صدرٍ لا أمتلكها .. لم تتغير معاملته الخاصة لي، بل منحني العديد من الامتيازات التي أثارت حسد كل من حولي.

ومن فترةٍ لأخرى، كنت أتفاجأ بأحد هداياه البسيطة على مكتبي صباحًا ..

وردةٌ باللون الأحمر، لوني المفضل .. قهوتي التي يُعدها ببراعةٍ.. كتابٌ تحدثت بعفويةٍ عن رغبتي في شرائه، لأتفاجأ به على مكتبي بعدها بعدة أيامٍ.. أو أحدث أسطوانةٍ لمطربٍ أعشقه حقًا ..

لأعاتبه بقسوةٍ كل مرةٍ، وأرفض هداياه في كثيرٍ من الأحيان .. وأحاول رغم ذلك كبت ذلك الشعور الداخلي بالسعادة الذي يجتاحنى ولا أدري مصدره عندما يفعل ذلك ..

لعله غرور المرأة .. أن تشعر أنها مرغوبة ..

وأتطلع بترقبٍ نهمٍ لمفاجأته التالية التي لا تتأخر كثيرًا .. فأعاتبه وأعاتب نفسي مجددًا بقسوةٍ أكبر

بل أنه رفض عددًا من فرص الترقي التي لاحت له وسط دهشة الجميع، فقط ليبقى بجواري داخل فرع البنك الصغير الذي نعمل به ..

ثلاث سنوات في العمل مرت سريع. ا ..

كنتُ أسمع عن كفاءته من اليوم الأول لعملي هنا .. نال ثقة الجميع ومحبتهم .. توالت نجاحاته رغم صغر سنه ..

تقربت منه العديد من الفتيات، بل أن بعضهن حاولن استمالتي في البداية باعتباري سكرتيرته من أجل الوصول إليه .. ولم أساعد أيًا منهن بالطبع وإن تظاهرتُ بالعكس .. ولم يميل هو إلى أحدٍ سواي دون أن أبادله المشاعر نفسها..

لتلاحقني نظرات الحسد على وجوه البعض، والغيرة على وجوه آخرين بعد أنباء تقدمه لخطبتي .. لستُ جميلة، على الأقل مثل كثير من الحسناوات ممن تقربن منه، لكني الوحيدة التي اختارها، مُفضلاً إياها عن كل النساء .. وهو ما أثار دومًا دهشة الجميع.

لما لم أملك الذكاء الكافي لتوقع ما حدث؟

بدا في الأيام الأخيرة على غير طبيعته .. مُكتئبًا .. مُنعزلاً .. مُشتتًا .. وكأنه فقد كل أسباب الحياة دفعةً واحدةً ..

قبلها سمعني دون قصدٍ وأنا أسخر منه مع إحدى زميلاتي ..

كنتُ أحاول أن أنفي أمام الجميع أي صلةٍ عاطفيةٍ تجمعنا ..

قسوتُ عليه حقًا يومها دون إراداتي .. اضطررتُ لذلك .. تقدَّم أحدهم لخطبتي من فترةٍ ورحَّبتُ به، لكنه سمع بالشائعات التي تدور عنا في البنك ولم يعد .. تقدمتُ بطلب نقلٍ تم رفضه .. كنتُ فقط أرغب أن أبعد تلك الصورة التي تربطنا معًا عن أذهان الناس بأي طريقة، وبصورةٍ حاسمةٍ .. وعندما تطرَّقت زميلةٌ ثرثارةٌ إلى الموضوع أثناء زيارتها لمكتبي، سخرتُ من الأمر، ومنه .. بالغتُ في ذلك حقًا، لعل ذلك الكابوس ينتهي .. لكني تفاجئتُ به على باب مكتبي وقد سمع كلامي،

لم يعاتبني .. لكني قرأتُ بوضوحٍ على وجهه آثار صدمةٍ وذهولٍ لم يُفلح في إخفائها.

لم أهتم وقتها، بل ربما سعدتُ لما حدث .. كان يجب إنهاء هوسه المرضي بي بأي صورةٍ، وقصة غرامنا المزعوم التي تشوه سمعتي لم يكن لها أن تستمر أكثر من ذلك ..

ساءت حالته بعدها سريعًا، وكأن أحدهم امتص روحه فجأة ..

بات أكثر عصبية في العمل .. أقل مرحًا وتبسُّمًا، وفقد كثيرًا من حماسته وشغفه المعتاد.

توقعتُ أنها أعراضٌ طارئةٌ .. واعتقدتُ أنه سيتجاوز ما حدث سريعًا .. ويعود إلى طبيعته المرحة بعد فترة .. واشتقتُ حقًا لتلك الابتسامة الجذابة التي تشرق على شفتيه كلما رآني، موقنةٌ أنها ستعود سريعًا ..

لكني كنت حمقاءًا.

صدمنا جميعًا وقتل نفسه ..

غادر العمل ذلك اليوم فجأةً لموعدٍ هامٍ على أن يعود سريعًا، فلم أهتم .. لكنه لم يعد ..

وفي اليوم التالي سمعنا الخبر ..

عثروا عليه في شقته الخاصة بعد أن قطع شرايين يده ..

لوهلةٍ لم أشعر بشئ .. ثم جرفني تيارٌ هائلٌ من الغضب والدهشة والحنق لم أعرف مصدره

فقدتُ اتِّزاني لفترةٍ طويلةٍ..

فكرتُ أن أحصل على إجازة .. أهرب بعيدًا ..

لكني واصلت العمل رغم معاناتي حتى لا أؤكد تلك الشائعات عنا .. وندمتُ سريعًا

لم يعد بي طاقة لرؤية مكانٍ ما زال معبقًا بحضوره الطاغي رغم رحيله ..

أو مواجهة تلك النظرات التي تحاصرني بصمتٍ مهينٍ من الجميع ..

نظراتٌ مسمومةٌ تختفي بصورةٍ هشةٍ خلف قناعٍ ظاهرٍ من الود .. مزيجٌ من اللوم والغضب المكبوت والكره .. تشير بوضوح إليَّ أني السبب .. تحكُم عليَّ بالإدانة .. تُنفّذ حكمها دون هوادة .. تجلدني وتستنزف قواي ببطءٍ، وتطاردني حتى في أحلامي

بل أشعر بحرارة النظرات نفسها من بعض العملاء ..

واثنان من الصحفيين حاولا إجراء مقابلةٍ معي دون باقي الزملاء لتزيد معاناتي،

لكني واصلتُ العمل .. رغمًا عني فعلت، لم أشأ أن أثبت للجميع صحة مزاعمهم .. غيابي لن يأتي بنتيجةٍ سوى أن يزيد الأمر سوءًا، ويؤكد ما يدور في أذهانهم ..

وتدريجيًا بدأتُ أفقد ما تبقَّى من اتزاني ..

وشعوري بالندم يطغى يومًا عن يومٍ ليتجاوز كل حدود الأمان .. فشلت كل الجهود التي قمت بها للتصالح مع نفسي، والسخط بداخلي يزداد هياجًا وضراوة وينهش أعصابي رغم كل مسكنات التجاهل واللامبالاة التي لجأتُ إليها ولم تأتِ سوى بنتائجٍ عكسيةٍ، وباتت تدفعني لدوامة التفكير فيما حدث أكثر ..

توقع البعض انهياري .. راهنوا فقط على التوقيت

تمنيتُ أن تصيب توقعاتهم ويحدث الأمر سريعًا

، لعلي أرتاح مما أمر به..

وعندما طال الأمر قليلاً .. فقدتُ كل ما تبقى من تعاطفهم معي، وكأن انهياري هو الشئ الوحيد الذي كان يمكن أن يشفع لي عندهم ..

بات الجميع يعاملني بجفاءٍ ظاهرٍ .. أشعر بهم يبتعدون عني .. يتجنبون الاقتراب مني، يرسمون حولي دائرةً وحدودًا لا يمكن تجاوزها وكأني وباءٌ لعينٌ .. ويتركون بيني وبينهم مسافاتٍ آمنةً تزيد عزلتي ..

لِما أصدروا حكمهم عليَّ بتلك القسوة؟

ألا يكفي ما أفرضه على نفسي من عقابٍ يتجاوز حدود طاقتي على الاحتمال؟

وها هو مكتبه الخالي يُذكِّرني به طوال فترة العمل ..

بل يطلب مني رئيسي أن أحل محله مؤقتًا لحين تعيين رئيسٍ جديدٍ للقسم ..

وأعجز عن التفكير ..

يأمرني أن أشغل مكتبه واجلس على كرسيه الوثير .. أشم عطره المفضل .. وتحيط بي أغراضه الخاصة التي لم يسعفه الوقت لجمعها قبل رحيله ..

ولا أستطع القيام بذلك في البداية

ثم أتمالك نفسي ..

عجلة العمل لا يجب أن تتوقف كما قال، والعملاء لا ذنب لهم.

أفعل ذلك بحذرٍ بالغٍ في البداية .. وأتماسك وأنا أحتل مكتبه.

لا يمكنني أن أمنع نفسي رغم ذلك في يومي الأول من أن أتحسس أدواته صورة والدته على طاولة المكتب .. قلمه المفضل .. أوراقه المتناثرة .. وحاسبه الشخصي ، أتماسك بصعوبةٍ ..

ثم أبدأ بمراجعة كل أوراقه ..

ويمتصني العمل .. لعلي أنسى ما حدث

ثلاثة أيامٍ لا أكاد أخرج من المكتب .. وأجد في ذلك راحة

ويدفعني الفضول في نهاية اليوم الثالث إلى فتح حاسوبه المحمول .. خاصةً بعد أن علمتُ أنهم على وشك جمع كل متعلقاته وتسليمها إلى عائلته ..

ليتني لم أفعل ..

ينهار كل شئ فجأةً ..

وأتعرض لصدمةٍ أكبر ..

أراه على حقيقته بعد عدة ساعاتٍ من البحث .. ذئب نساءٍ لا يمل من مطاردة ضحاياه .. ورسائله على وسائل التواصل المختلفة تفضح ذلك

وأبحث بنهمٍ أكبر ..

وتفاجئني صور لفتياتٍ كثيرة معه في أوضاع حميمةٍ، وبسهولة أميز بينهن زميلة أو اثنتان في العمل، بل وعدد من العميلات ..

يتصاعد حنقي على الفور ..

ويزعجني الأمر دون أن أدرك السبب ..

كنتُ أعلم أن له علاقاتٍ كثيرةٍ.. ربما قبل أن يعرفني .. وأنه توقف عنها بعد أن عرفني كما أكد لي مرارًا، لكن تاريخ بعض الرسائل حديث للغاية ..

ويتسرب الغضب إليَّ رغمًا عني .. اللعنة عليه .. لم يكن يحبني كما كنتُ أتصور، لم يكن يحب أحدًا في الواقع .. كنت. بالنسبة له مجرد فتاةٍ يحاول أن يلهو بها، يوقعها في شباكه ويضيفها بغرورٍ إلى رصيد مغامراته ..

لم يكن حتى جادًا في عرض الزواج مني ..

ها هو يعرض على فتياتٍ كثيراتٍ الزواج، ثم يهرب في اللحظة الأخيرة .. وكأنه يجد متعةً خاصةً في كسر قلوب أكبر عددٍ ممكنٍ منهن ..

وقبل أن أفيق مما اكتشفته، تُلاحقني صدمة أكبر ..

أنتبه بعدها بعدة أيامٍ على خطأ عند مراجعة ملف أحد العملاء .. أدقق في الأمر أكثر .. تقودني المراجعة إلى سلسلة أخطاء فادحة ..

وتدريجيًا بدأتُ أعي ما حدث .. وأرى الصورة الكاملة بكل تفاصيلها الصادمة ..

وأكاد أفقد عقلي مما اكتشفته ..

يتضح لي جليًا تورطه مع أحد العملاء في عدة صفقاتٍ تضر البنك ..

لهذا كان يتمسك بالعمل هنا ويرفض الترقي ..

والعميل تم إلقاء القبض عليه من عدة أيام كما سمعت، والتحقيقات تتوالى معه ..

لعله خاف من الفضيحة، فقتل نفسه ..

خائنٌ إذن .. ولصٌ أيضًا

التفكير يدفعني لهاوية الجنون ..

لعله لم ينتحر من الأساس .. بعث برسالةٍ إلى والدته قبل وفاته بدقائق فقط ليخبرها أنه في طريقه إليها، وطلب من البواب شراء بعض الأغراض بعد أن عاد لشقته فجأة .. ولم يجمع الملفات التي تدينه من مكتبه في البنك أو يخفي حتى حاسوبه الشخصي .. وشقته كانت في حالة فوضى عند العثور على جثته ..

هل يعقل؟ ..

ربما قتله أحدهم .. لسببٍ أو لآخرٍ يتعلق بإحدى معاملاته المشبوهة .. أو انتقامًا من علاقاته الغرامية الفاضحة، لا أعرف .. يعجز عقلي عن التفكير وترجيح أحد الاحتمالات ..

ولا يهمني بعد الآن إن كان قد قُتِل أم انتحر ..

الأحمق اللعين .. يستحق الموت على أي حالٍ

ويجتاحني شعور بالمهانة لم أختبره بتلك القوة من قبل ..

كيف خدعني طوال تلك الفترة؟ بل كيف نجح في خداع الجميع، وها أنا ذا ما زلتُ أراهم يتغامزون ويؤمنون تمامًا أني السبب في انتحاره ..

بسببه أصبحتُ مكروهةً ..

وأدفع ضريبة ذلك كل يومٍ .. رغم أني لستُ في واقع الأمر سوى أحد ضحاياه ..

وحبه المزعوم لي الذي يتهامس به الجميع لم يكن إلا وهمًا .. ولم يكن الدافع بالتأكيد وراء موته

تزداد المرارة في حلقي ..

وأقرر أمرًا

آن الآوان أن أكشف حقيقته المخادعة للجميع .. وأكشف معها مدى سذاجتي، أن أخبرهم بملء صوتي أني حمقاء .. وأنه لا يمكن لرجلٍ أن يقتل نفسه من أجل امرأةٍ، خاصةً إذا كانت حمقاءًا لعينةً مثلي ولا تتمتع بجمالٍ آسرٍ يُغري أي رجلٍ للافتنان بها حد الموت ..

حان الوقت أن أتخلص من نظراتهم الحالية ..

نظرات الشفقة والاستهزاء التي أتوقع أن تقابلني لاحقًا أهون بكثيرٍ من نظرات اللوم والعتاب والغضب المسمومة ..

سأتحمل سخريتهم المرتقبة بكل مرارتها ..

وأخرج من دائرة الاتهام التي تلتهم أعصابي ببطءٍ قاتلٍ كل يومٍ ..

أعقد العزم .. أجمع الملفات التي تدينه، يزداد حماسي ..

استجمع شجاعتي .. و ..

في اللحظة الأخيرة أتراجع ..

سببٌ ما يمنعني من تنفيذ ما عزمت عليه

شئٌ ما بداخلي يجبرني على التروي ..

أجد نفسي أعيد التفكير فيما حدث

هل كان سبب موته هو حبه لي حقًا أم انتحر بسبب خوفه من الفضيحة أم قتلوه؟ .. لن أعلم أبدًا، ولا يهمني ذلك.

وتلك الهالة التي رسموها حولي، وقصة غرامه بي التي جعلوها مضرب الأمثال .. وتضحيته بروحه من أجلي .. هل لديَّ المقدرة حقًا على كشف زيف كل ذلك وتحمل العواقب و أن أطالع صورتي في المرآة وأكتم مرارتي؟ تأكدتُ بعد تفكيرٍ عميقٍ من أمر ما.

لا يناسبني دور الضحية الحمقاء بأي حالٍ بعد أن لعبتُ طويلاً دور البطولة .. ولن أتحمل شماتة البعض.

ودون ترددٍ، أجد نفسي أخفي الملفات التي تدينه ..

وأواصل عملي كأن شيئًا لم يكن ..

ذلك أفضل لي وله ..

واليوم عندما تسألني أحدى العميلات بفضولٍ أحمقٍ معتادٍ عما حدث .. لا أتردد، أرسم على وجهي قناعًا من البراءة، أتنهد بحرارةٍ ثم أرد عليها بصوتٍ يقتله الشعور بالذنب:

- لن أسامح نفسي حقًا لما حدث له .. لن أفعل أبدًا .. سأظل أدعو له طوال الوقت بالرحمة.

عقاب/اعتراف

بمجرد أن التقيتُ صديقتي في منزلها، حتى سألتها عن سر غيابها الطويل عني طوال الفترة الماضية، وعدم ردها على مكالماتي الأخيرة .. ابتسمت قائلةً بأنها قصة طويلة .. ولأني أهتم لأمرها حقًا .. فضلاً عن كوني امرأة يمكن أن يقتلها الفضول حقيقةً لا مجازًا .. ألححتُ عليها فابتسمت دون أن ترد، تمنَّعت طويلاً ولم تشفِ غليلي فداعبتُها قائلةً:

- ربما كنتِ تمرِّين بأزمةٍ نفسيةٍ خانقةٍ.

ضحكت قائلةً: عملنا كأطباءٍ لا يمنحنا حصانةً ضد المرض .. كم من طبيبٍ وقع في براثن المرض الذي يعالجه.

أجبتُها مازحةً: استرخي إذن واحكي كل شئ .. اعتبري نفسك مريضةً ولو لمرةٍ واحدةٍ.. أعدكِ بأن لا أتقاضى منكِ أية أتعابٍ، وهذا استثناءٌ لا أقدِم عليه كثيرًا.

ابتسمت قائلةً: حسنًا سأحكي فقط لأتخلص من إلحاحكِ الطفولي.

ارتسمت على وجهها علامات الجد قبل أن تُكمل: ولأنها تجربةٌ غريبةٌ تعلمتُ منها الكثير، ودفعتُ ثمن ذلك غاليًا، ولا أرغب أن تختبري يومًا تلك المعاناة!

اعتدلتُ في مقعدي ومنحتُها كل اهتمامي على الفور .. ارتشفت قليلاً من كوب الماء أمامها .. أسندت رأسها للخلف وشردت بعيدًا لبرهةٍ قبل أن تقول بهدوءٍ:

بدأ الأمر منذ عدة أشهرٍ .. كان آخر مريضٍ لديَّ تلك الليلة في العيادة .. ورغم أن الممرض أخبرني أنه حرص على الحضور مبكرًا، لكنه فضَّل الانتظار حتى انصراف آخر مريضٍ .. لم يُدهشني الأمر .. ربما تكون أول مرةٍ يزور فيها عيادة طبيبٍ نفسيٍّ ويتملَّكهُ التردد .. نُصادف كثيرًا من الحالات المشابهة على أي حالٍ .. الزيارة الأولى للطبيب النفسي هي الأصعب دومًا، والعقبة التي لا ينجح كثيرٌ من المرضى في اجتيازها .. دخل حجرة الكشف بخُطى ثابتةٍ .. توقعتُ أن يدخل خائفًا يُقدِّم ساقًا ويؤخر أخرى لكنه سار بثباتٍ حتى توقف أمام المكتب .. نهضتُ لاستقباله، مددتُ يدى لأصافحه بعفويةٍ فتلقاها بيدٍ من فولاذٍ وعصرها بين يديه .. قبضته القوية آلمت يدى لكني أخفيتُ ذلك .. جلس وهو ما زال يتفحص المكان حوله .. مسح ببصره المكان كاملاً في لحظاتٍ قبل أن تستقر عيناه في النهاية عليَّ .. عينان قاسيتان لم أرَ مثلهما من قبلٍ .. خليطٍ شديدٌ من الحدة والبرود والوحشية .. تجنبتُ نظرات عينيه بمطالعة بعض الأوراق أمامي .. تناولتُ سريعًا القلم لأدوِّن بياناته، سألتهُ بهدوءٍ عن اسمه، انتظرتُ الإجابة، فلم يرد .. رفعتُ عيني عن الأوراق وتطلعتُ إليه فوجدته ما زال يُحدق فيَّ وكأنه يريد أن يخترق جسمي وينفذ إلى أعماقي، واجهتهُ بنظراتٍ ثابتةٍ تلك المرة .. تكلم أخيرًا فطلب بنبراتٍ حازمةٍ أن أعفيه من مسألة ذكر الاسم .. حاولتُ أن أوضح له أن مهنة الطبيب النفسي تعتمد على الثقة المتبادلة، وأن كل ما يبوح به المريض يظل سرًا بطبيعة الحال، ولكنه واصل الرفض معللاً بأن الأمر يشكل حرجًا لمركزه .. لم أجد بُدًا من سؤاله في النهاية: وماذا عن باقي تفاصيل حياتك؟ هل يمكن أن أسأل عنها؟ وظيفتك مثلاً؟

رد بعد فترة صمتٍ: بالطبع .. لن أخفي عنكِ أي شئ، فمن مصلحتي في النهاية أن أجد علاجًا لحالتي، خاصةً أني جئت إلى هنا طواعيةً .. أعدكِ أني لن أخفي أية تفاصيلٍ مهما كانت مؤلمةً أو حساسةً.. ولكن لي فقط شرطٌ واحدٌ .. أو طلبٌ قبل بدء العلاج ..

سألته بتلقائيةٍ: ما هو؟

أجابني بحزمٍ: أن يظل ما يدور في هذه الغرفة من أسرارٍ داخلها ولا يتجاوز حدودها للخارج ..

قبل أن أقاطعه لأؤكد أن ما يطلبه ميثاق شرفٍ نلتزم به تجاه المريض دون طلبٍ خاصٍ .. أكمل قائلاً: وبالطبع إذا حدث وتم إفشاء أيٍ من أسراري سيكون لى حق الرد .. ولن يكون الرد هينًا .. ولي شرطٌ أكثر أهميةً .. أن تواصلي العلاج للنهاية مهما كانت حالتي .. ومهما كشفت لكِ من أسرارٍ، حتى لو كانت مزعجةً لا يتقبلها إنسان أو يستسيغها بسهولةٍ.

راودني بعض القلق، لكني بسرعةٍ شديدةٍ وخوفًا من أفقده ثقته بي كطبيبةٍ في أول جلسةٍ منحته موافقتي بإيجازٍ .. ظهرت سريعًا ابتسامةً غامضةً على وجهه وتلاشت بسرعةٍ أكبر .. سألني من أي نقطةٍ يبدأ حديثه، فأخبرته بأن الاختيار له .. مددتُ يدى لأدير المُسجِّل، فمنعني بحزمٍ .. كثيرٌ من المرضى يخافون من تسجيل اعترفاتهم على أي حالٍ .. رد فعلٍ طبيعيٍّ طالما لم تُبنَ جسور الثقة بعد بشكلٍ جيدٍ بين المريض وطبيبه ..

تخليتُ عن المُسجل وأمسكتُ القلم لأدون بعض الملاحظات، ثم أصغيت إليه جيدًا.

في الجلسة الأولى لم يتكلم كثيرًا.. مجرد ضابط شرطة عُرف بالقسوة وعندما بدأت سوابقه تزداد وسمعته السيئة تتناقلها الألسن تم نقله إلى إدارة أحد السجون .. أرادوا إبعاده خاصةً بعد أن بدأت الصحافة تشم رائحة جرائمه المتزايدة .. رغم ذلك لم يخفف من منهجه بل زاد عنفه في الفترة الأخيرة حتي بات يُشكل تهديدًا للسجناء ولنفسه أيضًا.. صارحني بكلماتٍ مقتضبةٍ بأنه يرغب في مساعدة نفسه وكبح سلوكه غير المقبول والذي يكاد يكلفه الكثير .. لم يلفت نظري أي شئ غير عاديٍّ مما رواه .. حالة تتكرر كثيرًا.. كم من ضابطٍ يلجأ للعنف ثم يصبح-بالنسبة له- سلوكًا ممنهجًا يصعب السيطرة عليه أو التحكم في حِدَّته فيما بعد .. يحتاج لتعديل معرفي وسلوكي قوي، وربما كان الأمر يتعلق بمشكلةٍ في ماضيه؛ عقدةٌ ما كبتها طويلاً في عقله الباطن لا زالت تؤثر على أفعاله .. انتهت الجلسة دون ذكر مزيدٍ من التفاصيل .. لم أصافحه وهو يخرج، فيدي ما زالت تؤلمني من بداية الجلسة .. دونت بعض الملاحظات البسيطة عن حالته وانطباعي الأول فور مغادرته.

الجلسة الثانية كانت بعد أسبوع.. جاء أكثر استعدادًا للكلام .. تعرفتُ منه على بعض التفاصيل وبدأت الصورة الباهتة تأخذ شكلاً أكثر وضوحًا.. ضابط أمن دولة كبير هو ولم يكن مجرد ضابط شرطة عادى كما توهمتُ .. عمل في قضايا كبيرة ونال عدة حوافز وترقيات استثنائية نتيجةً لجهوده الفريدة .. قطع كلامه فجأةً عن حياته المهنية ليبدأ بالحديث عن أسرته .. لم أشأ أن أقاطعه وأقوده إلى جهةٍ معينةٍ يُلقى الضوء عليها وفضلتُ أن أتركه على سجيته يحكي بعفويةٍ عما يدور بداخله، ويسرد خواطره كما تتراءى له، وبخاصةٍ في الجلسات الأولى حتى أدرك أبعاد مشكلته بوضوح .. علمتُ أنه متزوجٌ من فترةٍ طويلةٍ .. صارحني بشكوكه تجاه زوجته

ومعاملته السيئة لها في الفترة الأخيرة، وعندما طلبت. منه مزيدًا من التفاصيل عن نوع تلك المعاملة، أجاب بتلقائيةٍ أنه لا يضربها ولا يمارس معها أي عنفٍ جسديٍّ خاصةً أن والدها يشغل منصبًا كبيرًا لم يطلعني عليه، ولكن ينتابه الشك دومًا في كل تصرفاتها .. صارحني أنه حوَّل حياتها مؤخرًا إلى جحيمٍ حتي أنها أدمنت تناول الأقراص المهدئة بسببه، وبدأت تخاف على نفسها منه، فلا تنام معه في غرفةٍ واحدةٍ.. اعترف أنه ينتابه أحيانًا هاجسٌ قويٌ بأن يقتلها .. يؤمن أنها تخونه وتفشي كل أسراره لكن ينقصه الدليل .. لو عثر عليه حقًا لقتلها دون ترددٍ رغم عشقه الشديد لها .. أضاف أيضًا أنها طلبت منه أخيرًا اللجوء لطبيبٍ نفسيٍّ قبل أن تتفاقم المشاكل بينهما لتصل إلى طريقٍ مسدودٍ .. وأن ذلك هو السبب الرئيسي لزيارته لي .. في النهاية ما زال يحبها ولكن يعذبه الشك ويخشى أن يُقدم على عملٍ متهورٍ يندم عليه لاحقًا، تصورتُ أن سبب مجيئه هو إحساسه الداخلي بالندم لسجله الحافل من العنف ضد المساجين ومن تولي التحقيق معهم .. لكن اتضح أن زوجته هي التي ضغطت عليه لتلقي العلاج، وأن خوفه على انهيار حياته الأسرية هو ما دفعه لاتخاذ تلك الخطوة .. لم أهتم كثيرًا، فالمهم بالنسبة لي كطبيبةٍ أن لديه رغبة في العلاج؛ سواء جاءت حقًا نتيجة دوافع داخلية أم ضغوط خارجية .. وأنه لجأ لمن يقدم له الحل، ولديه الرغبة والدافع لتخطي مشكلته.

انطباعي الثاني كان أنه مصابٌ بجنون الارتياب أو البارانويا .. إنسانٌ لا يثق في أحدٍ بسهولةٍ ويُشكك في أن كل من يعرفه أو يتعامل معه يخونه، أو على الأقل يفضح أسراره .. ورغم قوته الظاهرية إلا أنه أضعف من أن يتحكم في نوبات غضبه التي تنتهي دومًا بعنفٍ شديدٍ أكسبه سمعةً سيئةً، ويخشى أن تؤدي إحداها إلى مأساةٍ تُدمر حياته المهنية، أو أسرته .. دونتُ ملاحظاتي وبات ما يشغلني الآن سرعة اكتشاف سبب مشكلته لبناء خطة العلاج قبل أن تتدهور حالته أكثر، فيسبب الأذى لمن حوله،

في جلسته الثالثة تكلم عن أولى ضحاياه .. أول متهمٍ أو مشتبهٍ به أوقعه حظه العاثر، ليس تحت طائلة القانون، ولكن تحت مقصلة هذا الرجل .. أقشعر بدني وأنا أستمع لكل تلك التفاصيل المرعبة التي يحكيها .. تملكني الغثيان وهو يصف بشاعة جرائمه بنبراتٍ هادئةٍ خاليةٍ من الانفعال .. رغم طبيعة عملنا التي تجبرنا في بعض الأحيان على الاستماع إلى التفاصيل الصادمة، واستعدادي لذلك وتهيئة نفسي للأمر، إلا أني تمالكت أعصابي بصعوبةٍ لأمنع يدي من أن تمتد لأي شئٍ صلبٍ وحادٍ حولي أهشِّم به رأسه .. سفاحٌ هو بلا رحمةٍ تداريه ثياب إنسان محترم .. لأول مرةٍ يسرد كل تلك التفاصيل البشعة .. ذكر كل شئٍ حدث كما لو كان يراه أمامه دون خوفٍ أو بادرة خجلٍ .. والغريب أني لاحظتُ ابتسامة تشفٍّ وسعادةً تطفو على وجهه وهو يحكي عن عمله البارع كجلادٍ محترفٍ .. وصفه كان دقيقًا لدرجةٍ لا تُصدَّق حتي أني تخيلتُ سماع أنَّات ضحاياه .. حكى عن ضحيته الثانية والثالثة .. اللعنة على ذاكرته القوية .. لا أمتلك خبرةً طويلةً لكني تعاملتُ مع كثيرٍ من المرضى ممن استخدموا الإيذاء البدني، واستمعتُ لحكاياتهم المفزعة أحيانًا، لكني لم أتعامل مع اعترافاتٍ بتلك الهمجية من قبلٍ .. وحشيةٌ لم أتخيلها أو أحلم بها حتى في أسوأ كوابيسي .. وقبل أن يسترسل نجحتُ في إيقافه بحجة انتهاء وقت الجلسة .. لم أستطع الاستماع أكثر لحديثه الملئ بالدم والحافل بالعنف والألم .. تطلَّع في ساعته بشكٍ، فأدرك أن وقت الجلسة لم ينتهي فعلاً، لكنه نهض بتعبيرٍ خالٍ على وجهه، ومد يده ليصافحني .. صافحتُه مضطررة حتي لا أعمِّق شكوكه تجاهي، فأبقى يدي في يده لثوانٍ، ورمقني بنظرةٍ ثاقبةٍ واجهتُها بثباتٍ ظاهريٍّ .. بمجرد أن خرج حتى جلست لدقائقٍ أحاول استجماع أفكاري .. هدأتُ قليلاً بعد فترةٍ، فعدتُ إلى دفتر ملاحظاتي ودونتُ انطباعي الجديد عنه .. السادية .. إنسانٌ يتلذذ بتعذيب غيره .. رؤية شخص يتألم مصدر راحةٍ ورضا له .. تساءلتُ بقلقٍ حقيقيٍّ وأنا أنظر للدفتر .. هل هناك مزيد من الانطباعات السلبية لأكتشفها عنه؟ إنسانٌ عنيفٌ شكَّاكٌ

مصابٌ بالبارانويا .. وساديٌّ .. يملك حقًا كوكتيلاً من الاضطرابات النفسية المُعقَّدة، وربما اكتشف المزيد منها لاحقًا ..

الجلسات التالية جاءت متشابهة .. مليئة بالتفاصيل .. عميقة .. وصادمة أكثر .. لم يهمني سوى حديثه الخاص عن والده ضابط الشرطة والذي اعتاد معاملته بقسوةٍ شديدةٍ من الصغر .. وبطريقةٍ جافةٍ تركت آثارها في نفسه .. الغريب أنه لم يعاود الحديث في أي موضوعٍ أبدًا مرتين وكان لديه دائمًا شئٌ جديدٌ ليرويه .. بتوالي الجلسات بدأتُ أملك تصورًا أكثر شموليةً لحالته وشخصيته؛ كلما ازداد فهمي لشخصيته، كلما زاد قلقي منه .. شخصيةٌ مصابةٌ بالهَوَس يستحوذ عليها هاجس الارتياب طوال الوقت ويمكن أن تقوم بأي تصرفٍ غير منطقيٍّ أو عقلانيٍّ لمجرد الشك .. يلجأ للعنف للتنفيث عن مشاعره المتناقضة حتى ولو على حساب الآخرين .. يفقد السيطرة على نفسه ونزواته بسرعةٍ .. وعندما يفعل، لن يُجدي شئ في سبيل إيقافه ولا توجد حدود لما يمكن أن يفعله .. الطامة الكبرى أنه في أحد الجلسات بدأ يُلمِّح بامتلاكه بعض الشكوك تجاهي .. شكاوٍ مجهولةٌ وصلت لرؤسائه تضم تفاصيلاً عن عددٍ من جرائمه التي لا يعرفها إلا قلة، وأنا منهم بطبيعة الحال .. التحقيق جارٍ ومعها أعصابه تزداد سخونة .. بالطبع حاولتُ طمانته وأعدتُ عليه مرارًا واجبات وظيفتي التي تُحتِّم عليَّ عدم إفشاء أسرار عملائي لأي جهةٍ مهما كانت .. وضحتُ له ذلك لأستعيد سريعًا ثقته نحوي كطبيبةٍ.. ولسببٍ آخرٍ أكثر أهمية اكتشفته فجأة؛ أني بدأت أخافه.. لا أخجل من قول ذلك .. فالطبيب ليس محصنًا دائمًا من نوبات جنون حالاته .. أدرك جيدًا مدى اندفاعه وتهوره وتجاوزه لكل الخطوط الحمراء إذا انتابه الريب في أحدٍ .. وبالنسبة له، وجود دليلٍ حقًا على ظنونه أو عدم توافره لا يشكل أي أهميةٍ تُذكر .. يكفيه بعض الشكوك والهواجس القوية تجاه شخصٍ ما ليصدر حُكمًا.. حُكمًا يستوجب التعامل مع المُدان من وجهة نظره بكل قسوةٍ وبلا تفكيرٍ.

سكتت صديقتي قليلاً ثم قالت: أدرك ما تودين قوله .. ولكني في النهاية بشر .. وعلمي ربما يحصنني من نوبات اندفاعه .. وربما لا .. كنتُ أحتاج وقتًا لتقويم سلوكه .. وطالما لم يبرأ بعد فهو مصدر خطرٍ لكل من يتواصل معه .. فما بالك بمن يملك كل أسراره! كنتُ أخاف منه بالفعل دون أن أظهر ذلك .. حاولتُ تجاهل مخاوفي طويلاً حتي لا يتأثر تقييمي لحالته وحتي لا تختلط مشاعري الشخصية بالعمل، وهو خطأٌ فادحٌ كما تعلمين في مهنتنا .. ولكن خوفي كان يشتد أحيانًا لدرجةٍ تُعجزني عن التفكير السليم .. تخيلي نفسكِ وحيدةً بمفردكِ في غرفةٍ مغلقةٍ مع وحشٍ آدميٍّ يتلذذ بسرد نوادر تعذيب ضحاياه .. وعلى استعدادٍ ليُضيفك بكل سهولة لقائمة الضحايا لمجرد خاطرٍ يمر بعقله ليس له أصل من الصحة .. والأسوأ أن بحكم ميثاق عملك لا تملكين خيار اللجوء لأحدٍ طلبًا للمساعدة وما يُمثلها من انتهاكٍ لحقوق المريض الأساسية .. بكلماتٍ أخرى .. كنت أشبه بمدرب أسودٍ محبوسٍ مع أسدٍ في قفصٍ واحدٍ .. أسدٌ يمكن أن يثور في أى لحظةٍ دون سببٍ، ووقتها لن تُجدي خبرة المدرب نفعًا في إيقافه.

على العموم استمر كل شئٍ كالمعتاد لفترةٍ .. لم يكن هناك حدودٌ لما يحكيه .. مع توالي الجلسات كان يسرد كل ما يجول في خاطره وبجرأةٍ شديدةٍ .. ينسى تمامًا أني موجودةٌ ويستمر في عرض سجل جرائمه .. أحيانًا بزهوٍ، وأحيانًا بنبرة ندمٍ لكنها هشةٌ .. حتى إحدى الجلسات عندما بدأ يصف بهدوءٍ تفاصيل اغتصابه لأحدى السيدات .. زوجة متهمٍ رفض الاعتراف رغم بشاعة التعذيب .. فتناوب اغتصابها عدة مراتٍ أمام عينيه رغم رضوخ المتهم سريعًا واعترافه على نفسه .. سرده للتفاصيل بكل وقاحتها -بالرغم من كامل استعدادي وتهيئتي لنفسي قبلها- أوصلني لدرجةٍ اقشعرَّ لها بدني وأصابتني بغثيانٍ شديدٍ .. وتحركت لديَّ رغبةٌ قويةٌ في أن أفرغ ما في جوفي أولاً ثم أنهال على رأسه بأي أداةٍ حادةٍ إلى أن أهشِّمها للأبد .. رغم علمي أنه مجرد ضحية للمرض النفسي، ولا يجوز لي بأي حالٍ إصدار أحكامٍ عليه، وأن دوري كطبيبةٍ هو مساعدة

المريض فقط دون إدانته، لكني فشلتُ .. للمرة الثانية لم أتمكن من السيطرة على أعصابي .. قاطعتُه بعجلةٍ بحجة انتهاء وقت الجلسة .. تلك المرة تطلَّع إليَّ طويلاً .. لم يتكلم ولكن نظراته كانت حادةً مليئةً بالشك لدرجةٍ دفعتني لتجنبها للمرة الأولى منذ بدء جلسات علاجه والانشغال بالنظر إلى بعض الأوراق أمامي .. نهض ليغادر ببطءٍ .. وقبل أن يخرج تكلم أخيرًا.. ذكَّرني مجددًا، وربما للمرة العاشرة، بأنه لا يُسامح شخصًا يخونه .. أو يفكر في خيانته .. مهما كان هذا الشخص.

لهجته كانت تميل للتهديد أكثر منها للتحذير .. عندما أنهيتُ العمل في العيادة متأخرًا ليلتها، قُدتُ سيارتي نحو المنزل كالعادة .. كان الطريق خالٍ تقريبًا في مثل ذلك التوقيت ولهذا لم أحتج لقوة ملاحظةٍ لأميِّز أن هناك سيارةٌ تتبعني .. لم أتبيَّن هوية سائقها الذي كان وجهه يختفي في الظلام .. ولكنه تبعني بإصرارٍ مُبقيًا مسافةً ضئيلةً بيني وبينه وكأنه لا يهمه أن أكتشف ملاحقته لي .. وعندما وصلتُ إلى منزلي واصل طريقه قبل أن يتوقف بعد منزلي بعدة أمتارٍ دون أن يغادر سيارته .. ربما كانت مصادفةً .. نزلتُ من السيارة وهرولتُ إلى المنزل .. يومها تأكدتُ من إغلاق كافة النوافذ والأبواب .. وحرصتُ على إضاءة كل مصابيح شقتي .. دلفتُ إلى الفراش بخوفٍ .. لم أنم ليلتها لأني واصلت التفكير فيما حدث رغم أني أنجح دومًا وبشكل أحسد عليه في طرد أي خواطرٍ تُزعجني قبل الذهاب للنوم لاستسلم له سريعًا.. كنتُ أشكُ أنه هو لكني لا أملك الدليل .. تسلل إلى عقلي خاطرٌ غريبٌ تلك الليلة ابتسمتُ له رغم صعوبة الموقف .. هل نقل إليَّ عدوى مرضه وأصِبتُ بجنون الارتياب مثله؟ لا أدر، في اليوم التالي خرجتُ مبكرًا لأتفاجأ بزجاج السيارة محطم .. أخبرني حارس البناية أنه وجد السيارة بتلك الحالة في الصباح دون معرفة الفاعل .. سُرِقت بعض محتويات وأكسسوارات السيارة التي لم تكن ذات قيمةٍ كبيرةٍ على أي حالٍ .. اعتبرتُ الأمر مجرد مصادفةٍ .. لأني لم أشأ أن أواصل

دفع تفكيري تجاه البديل الثاني .. أن يكون ما حدث مجرد تحذيرٍ منه .. تحذيرٌ ثانٍ يُنذر بهدوءٍ مشحونٍ قد يسبق العاصفة.

في الجلسة التالية كان هادئًا بدرجةٍ غريبةٍ .. بينما أدون بعض الملاحظات أثناء الجلسة سألني عن زوجي، بل وتفاجئتُ به يعرف اسمه .. كتمتُ انفعالاتي ودهشتي، فلم يظهر على وجهي أيٌ منها وأنا أجيبه أنه بخيرٍ .. لمحتُ نظرة خيبة أملٍ واضحةٍ فضحتها عيناه لردي التلقائي السريع على سؤاله .. أعلم أن عمله كضابط شرطةٍ يمنحه الصلاحية للقيام ببعض التحريات وربما عن طريق ذلك عرف الاسم .. حاولتُ استكمال الجلسة بشكلٍ طبيعيٍ وعفويٍ رغم أن القلق زاد بداخلي .. كانت سابقةً خطيرةً حقًا .. لأول مرة يقحم أموري الشخصية في جلسات العلاج .. وعندما سألني قبل انتهاء الجلسة عن موعد عودة زوجي من السفر .. تأكدتُ أنه يراقبني بالفعل .

قاطعت صديقتي قائلة: وهل كان زوجك مسافرًا بالفعل؟

أجابتني: نعم .. كان وقتها في الخارج لإنهاء بعض الأعمال الخاصة به .. كان يُخطط لأن ألحق به ولكني لم أوفَّق في الحصول على إجازةٍ من العمل.

تذكرت ذلك بالفعل .. شردت صديقتي ببصرها بعيدًا لبرهةٍ وبدا عليها الإرهاق قليلاً .. كنتُ على وشك أن أطلب منها التوقف ولكنها أكملت بصوتٍ خافتٍ بعد فترةٍ:

كنتُ خائفةً حقًا .. بات يُدرك تمامًا أني وحيدة، دون حمايةٍ، خاصة أن عائلتي تعيش في محافظةٍ أخرى .. وأراد أن يبلغني بصورةٍ أو بأخرى

بأنه على علمٍ تامٍ بتفاصيل حياتي .. ربما فعل ذلك دون قصدٍ .. وربما كتلميح أو تحذيرٍ مباشرٍ أكثر ..

في تلك الليلة تبعتني السيارة نفسها وتوقفت أيضًا على بعد عدة أمتارٍ من منزلي .. لم أنم ليلتها .. في الجلسة التالية جاء ولم يكن في حالته المعتادة، متوترٌ بشدةٍ وثائر الأعصاب .. أخبرني أنهم أوقفوه عن العمل .. وأن الصدمة كانت قاسيةً عليه حتى أنه للمرة الأولى في حياته يثور و يؤذي زوجته .. لم يذكر لي طبيعة الإيذاء الذي طالها .. ولم أشأ أن أستوضح منه بشكلٍ أكثر عمقًا، حالته كانت غريبة؛ عيناه تبرقان بالجنون وتعكس عدوانيةً مطلقةً، وظل يُردد بهستيريةٍ شديدةٍ أنه سينتقم من كل من خانه وتلاعب بثقته .. لم أنجح في تهدئته .. طوال الجلسة ظل ثائرًا بشدةٍ حتى أنه انصرف مبكرًا بشكلٍ مباغتٍ ولم يكمل الجلسة كالمعتاد ..

مع فقدانه لعمله أدركتُ أنه وصل لمرحلة الانهيار، أو قارب على ذلك .. وأنه الآن سيُقدم على أي فعلٍ أحمقٍ أو متهورٍ للتنفيث عن غضبه المتزايد والتخلص من المرارة التي يشعر بها .. وسيبدأ في السعي للانتقام من كل من يشك فيه .. وقد بدأ بالفعل بزوجته .. و ربما تطول قائمته أناسًا آخرين ..

انتابني إحساسٌ جارفٌ بالخوف لم أعهده من قبل .. في منزلي ذلك اليوم شعرت أني مُراقبةٌ .. بدأتُ أفزع من كل حركةٍ أو صوتٍ .. إحساسٌ لا يمكن وصفه أو التعبير عنه عندما تدركين أنك وحيدةٌ مهددةٌ من شخصٍ مختلٍ نفسيًا .. وحياتكِ تحت رحمة مريضٍ مُدرَّب جيدًا بحُكم عمله أن يصل لهدفه مهما كان صعبًا .. عشتُ حقًا أيامًا عصيبةً بعدها .. خاصةً أنه لم يحضر في الجلسة التالية، ولم يرد على أيٍ من مكالماتي للاطمئنان على حالته .. بدأ القلق يزداد لديَّ بصورةٍ غير مألوفةٍ، ويتمدد داخلى بشكلٍ لا تسعه أعصابى .. بعدها بيومين تلقيتُ اتصالاً من رقمٍ مجهولٍ، قمتُ بالرد لكني لم أسمع صوتًا من الطرف الآخر في البداية .. مرت ثوانٍ

وكدتُ أن أنهي المكالمة قبل أن يأتيني صوته .. تعرفتُ عليه فورًا رغم أن الصوت لم يكن واضحًا.. لفَظ بضعة كلماتٍ عن زوجته ثم بدأ يهذي بكلامٍ غير مفهومٍ .. ظل يصرخ ويتوعد بكلماتٍ لم أتبينها، ثم ازدادت نبرات صوته هياجًا وغضبًا قبل أن يُنهي المكالمة فجأةً ..

بدأتُ أراجع نفسي .. أدركت أني أغضبته، سواء عن قصد أو دون ذلك، وأنه لم يعد يثق بي بأي حالٍ، أو لعله اكتشف أنه حكى أكثر من اللازم، فبات يراني مصدر تهديدٍ له .. هاجت الهواجس بداخلي وتزاحمت في عقلي خواطر قاتمة .. ربما كان يُلاحقني الآن بالفعل .. لم يكن أمامي سوى التصرف بسرعةٍ .. أغلقت عيادتي وتحصَّلتُ على إجازةٍ من عملي الصباحي وحبستُ نفسي داخل المنزل .. اتصلتُ بزوجي وأخبرته بضرورة العودة في أسرع وقتٍ دون أن أوضح الأسباب .. خشيتُ أن يكون الهاتف مُراقبًا، فأمنحه بالتالي الدليل الذي يحتاجه .. خشيتُ أكثر أن أتصل بكِ أو بأحدٍ من أهلي أو أصدقائى لأني أعرف أنه قادرٌ على إيذاء أى شخصٍ أتواصل معه .. انعزلتُ عن العالم وأوصدتُ أبوابي على نفسي .. لا أخرج ولا أرى أحدًا .. حتى أغراضي اليومية يُحضرها البواب ويتركها على عتبة الباب فلا أفتح حتي أتأكد من أن الردهة أمام الباب خاليةً تمامًا .. تجاوزتُ أسبوعًا من أصعب أيام عمري .. أدمنتُ تناول بعض المهدئات .. وبدأت هالات سوداء تظهر تحت عيني من قلة النوم .. تمثلت في كوابيسي كل ما كان يحكيه .. كوابيسٌ بشعةٌ أرى فيها نفسي ضحيةً عاجزةً يُمارس عليها ساديته دون رحمة. .. مررتُ بوقتٍ عصيبٍ حقًا لا يمكن أن أنساه!

سكتت صديقتي وهي تتنفس بسرعةٍ .. تناولت بضعة رشفاتٍ من كوب الماء .. سألتها برفق:

- وكيف انتهى هذا الكابوس؟

ابتسمت بشحوبٍ قبل أن تقول: استيقظتُ يومًا وقررتُ أن أنهي معاناتي .. وصلتُ لحدٍ من الخوف يدفعني للجرأة، الخوف الزائد يُكسب المرء شجاعة غير معهودةٍ أحيانًا .. ثم عدتُ لرُشدي وفكرتُ في الأمر بهدوءٍ .. مر أسبوعٌ كاملٌ ولو كان يريد إيذائي حقًا لفعل .. استجمعتُ شجاعتي وخرجتُ .. ما زلتُ خائفة ولكن الحذر لا يمنع القدر كما يُقال .. واصلتُ إغلاق العيادة من باب الاحتياط .. ولأن المكان أيضًا يضغط على أعصابي ويُذكرني به .. بدأتُ بالذهاب للمستشفى الصباحي .. في اليوم الأول أنهيتُ عملي سريعًا وعدتُ للمنزل وأغلقتُ على نفسي .. في اليوم الثاني ذهبتُ للعمل أكثر هدوءًا .. علمتُ أن شخصًا ما سأل عني عدة مراتٍ هناك .. لا أعتقد أنه مريضي فهو يعرف عنوان بيتي وعيادتي ولو أراد رؤيتي لفعل .. مر يومان دون جديدٍ .. إلى أن توجهت للمستشفى في اليوم الرابع ليخبرني الممرض أن هناك ضيوفٌ في المكتب بانتظارى .. انتابني بعض التوتر .. ورغم استبعادي أن يزورني هنا .. لكني تقدمتُ وجلةً، فلم أعتد تلقي أي زياراتٍ شخصيةٍ في مكان عملي .. توجهتُ إلى مكتبي، فتحتُ الباب بحذرٍ وأنا أتطلع للداخل لأراهم.

هناك في الغرفة كان بانتظاري رجلٌ وامرأةٌ، فتقدمت بحيرةٍ.. الرجل مسنٌ في أواخر الستينات من عمره والمرأة شابة جميلة في مقتبل العمر .. لم أتعرف على أيٍ منهما لأني لم أراهما من قبل .. نهضا بمجرد أن دلفت للداخل وصافحاني بودٍ .. بعد تبادل كلمات ترحيبٍ قصيرةٍ تعمدتُ أن ألتزم الصمت حتي أتيح الفرصة لهما لتوضيح سبب الزيارة .. تنحنح العجوز بعد قليلٍ ثم أخرج صورةً من جيبه ناولني إياها قائلاً بصوتٍ أجهده المرض: أنا من طرف مريضٍ لديكِ.. لا أعلم الاسم الذي يستخدمه عندما يأتيكِ للعلاج .. ولهذا أعرض عليك صورته مباشرةً.

أخرجتُ نظارتي بهدوءٍ وتطلعتُ للصورة .. شحب وجهي فورًا وارتجفت يداي .. بذلتُ مجهودًا كبيرًا لأتمالك نفسي .. كان هو .. صورةٌ قديمةٌ له يبدو فيها -بشكل غير معتادٍ- مسالم وأكثر وداعة .. بل ومبتسمًا أيضًا! .. لم أستطع الرد .. هربت مني كل الكلمات وتخلى عني صوتي فجأةً .. أنقذني العجوز بعد أن لاحظ رد فعلي:

- أرى أنكِ تعرفتي عليه .. اسمحي لي أن أعرفكِ عليه أكثر .. وعلى اسمه الحقيقي.

عاد صوتي فجأةً، دفعتُ إليه بالصورة بحدةٍ، وجدتُ نفسي أهتف بسرعةٍ ودون وعيٍ: لا أريد معرفة اسمه الحقيقي.

ابتسم الرجل بتفهمٍ قائلاً:

- يبدو أنه سبَّبَ لكِ بعض المتاعب .. كالعادة .. أعتذر لكِ فهو مريضٌ وأنتِ تُقدِّرين ذلك بالطبع .. ولكن دعيني أعرفكِ عليه .. فهذا سبب مجيئنا هنا ..

لم أتكلم .. كنتُ على وشك الرفض ولكن شيئًا ما في لهجة العجوز الرقيقة وملامحه الطيبة كان يدفعني لأن أستمع .. كما أن فضولي بلغ ذروته، وواجبي في النهاية كطبيبةٍ يدفعني أن أعرف أكثر عن مريضي .. أكمل الرجل كلامه وقد استرخى في مقعده قليلاً:

- المريض الذي كنتي تعالجينه منذ عدة أسابيع اسمه "حسن" وهو ابني الوحيد، وزوج هذه الفتاة

أدهشتني المفاجأة قليلاً .. أخبرني من قبلٍ عن والده ضابط الشرطة القاس .. ولكن الرجل يبدو مسالمًا إلى حدٍ بعيدٍ، وتواضعه الظاهر للعيانِ لا يدل على أنه شخصٌ متحجرُ القلب .. كما أن الفتاة تبدو رقيقة الحال .. دفعني الحذر مرةً أخرى إلى أن ألتزم جانب الصمت تمامًا لأسمع كل ما في جعبة العجوز .. أكمل سريعًا:

- أنا أعلم أن ابني يُعالج عندكِ من فترة .. وأشهد أن حالته تحسنت كثيرًا منذ بدء يواظب على زيارته لك، قبل أن يتوقف فجأةً .. لا تستغربي يا سيدتي، فنحن نعيش معًا ونهتم بالطبع بمتابعة حالته، وزوجته هي التي أقنعته بالذهاب للعلاج، ومنذ لاحظنا أنه توقف ونحن نحاول معرفة السبب .. في الواقع اخترع أعذارًا كثيرةً لكني لم أقتنع بها؛ هو ابني وأنا أدرى الناس به وأعلم جيدًا متى يقول الحقيقة .. ورغم محاولاته للتهرب لكننا استطعنا أن نعرف منه السبب الحقيقي من عدة أيامٍ فقط .

ربما لأنه يشك بي ولديه رغبةٌ في قتلي، هكذا قلتُ لنفسي دون أن أنبس بكلمة .. أكمل الرجل في حرجٍ بعد فترة صمتٍ:

- في الواقع عرفنا أنه يخجل من العودة لحضور الجلسات .. ومواجهتكِ ..

كان هذا آخر سببٍ يمكن أن أتخيله .. وهل شخص مثله يعرف الخجل! ربما لم يختبر هذا الشعور من قبلٍ كثيرًا في حياته .. وجدتُ نفسي أكسر قوقعة الصمت الخاصة بي وأسأله بحدةٍ وبدهشةٍ: ولما يخجل مني؟

سكت الرجل فلم يتكلم، أطرق إلى الأرض .. تابعت الفتاة تلك المرة بعد فترة صمتٍ: لأنه كذب عليكِ ..

لوهلةٍ لم أفهم .. لم أرد .. كل طبيبٍ يدرك أنه من الطبيعي والوارد أن يكذب مريضه من آنٍ لآخرٍ .. ويُخفي بعض الحقائق سواء عن قصد أو دون ذلك .. واعترافاته رغم جرأتها إلا أنها يمكن أن تختلط ببعض الأكاذيب ليُخفي أبعادًا من شخصيته لا يريد لأحدٍ الإطلاع عليها، أو لأن عقله الباطن يسيطر عليه ويمنعه من قول الحقيقة .. قلتُ لها بتلقائيةٍ:

- ليس هذا سببًا يدعو للخجل .. طبيعي أن يكذب المريض أحيانًا على طبيبه .. والطبيب الجيد يتوقع ذلك.

أجابتني بسرعةٍ: ولكنه كذب في كل ما قاله ..

لم أفهم للوهلة الأولى .. ظهرت على وجهي علامات الدهشة فواصلت كلامها:

- عرفنا منه أنه ادعى تلك المرة بأنه ضابط أمن دولة .. ومأمور سجن له ضحايا .. وجرائمه تثقل كاهله .. في الواقع يا سيدتي زوجي ليس مجرمًا.. ولا عنيفًا أو دمويًا.. الحقيقة ببساطةٍ أنه يختلق كل ذلك .. هو ليس ضابطًا بالمرة .. كل ما قاله مجرد خيال ابتدعه .. شخصيةٌ رسمها ببراعةٍ بكل تفاصيلها وتقمصها بإجادةٍ يُحسد عليها .. وهي ليست المرة الأولى التي يُقدم فيها على هذا الفعل، وهو ما سبَّبَ له العديد من المشاكل من قبل ودفعني لأن أطالبه بمراجعة طبيبٍ .. صدقيني .. زوجي مجرد موظف حسابات بسيطٍ في شركة مقاولاتٍ .. وديعٌ ومسالمٌ إلى أبعد حدٍ ولم يؤذِ أحدًا في حياته من قبلٍ أو حتى يُفكر في القيام بذلك .. ولكن طموحه وخياله الواسع يجعله يهرب أحيانًا من عالم الواقع ويخلق واقعًا آخر يحب العيش فيه .. واقعٌ زائفٌ يلجأ إليه دون وعيٍ يتمرد به على حياته البسيطة التي يرفضها ويثور عليها ..

سكتت الفتاة فأكمل الرجل: هذا صحيحٌ للأسف .. وأعترف أن اللوم يقع عليَّ لأني فشلت في تربيته .. لاحظتُ من صغره أنه يختلق أمورًا كثيرةً ولكني لم أولي الأمر اهتمامًا، فالأطفال لديهم خيال واسع على أي حال .. وربما ساعد في ذلك هوايته في اقتناء وقراءة القصص الخيالية من صغره وإعادة تمثيلها أمام أصدقائه وتقمص شخصياتها .. وهي الهواية التي تحولت إلى إدمانٍ عندما كبر .. خاصةً بعد أن توفيت أمه التي كان يتعلق بها ويحبها بجنونٍ .. افتقاده لحنان أمه وانشغالي في العمل دفعه أكثر إلى الانغماس في هوايته وخلق عالمٍ يحلم به .. أنا لستُ طبيبًا أو خبيرًا بالطبع يا سيدتي، وإنما فقط أفكر بصوتٍ عالٍ، وسبق لي استشارة عددًا من المختصين بعد المشاكل التي سبَّبَها لنفسه وللآخرين .. باختصارٍ يا سيدتي وحتى لا أطيل عليكِ .. ابني مريضٌ بالكذب.

انتهي من كلامه لأشعر بأن الأرض تميد تحت أقدامي.. تطلَّب الأمر لحظاتٍ لأستوعب كل ما سمعته .. مجرد شخصٍ عاديٍّ مصاب بالميثومانيا أو الكذب المرضي .. وكل تلك الإدعاءات لم يكن لها أساسٌ من الصحة .. كل تلك الحكايات كانت فقط نتاج خيالٍ نشطٍ وخصبٍ لشخصٍ يعاني من هوس الكذب القهري .. إحساسه بالذنب .. ضحاياه .. أسراره .. جرائمه .. مجرد أكاذيبٍ .. وكل تحليلاتي له .. السادية والبارانويا .. كانت دليلاً على فشلي كطبيبةٍ في تشخيص حالته وتحليل شخصيته الحقيقية .. ثمان جلساتٍ تقريبًا وأنا أستمع له دون أن يراودني شكٌ في أنه يكذب .. أو أكتشف خداعه .. والأسوأ من ذلك .. ماذا عن كل ليالي الرعب والأيام التي مرت عليَّ ثقيلة ودفعتُ ثمنها غاليًا وأنا أترقب رد فعل مريضٍ كنتُ على يقينٍ تامٍ وقتها أنه قادر على إيذائي؟ لا حتي لو عُرض عليَّ أكتر الممثلين براعةً لاكتشفت زيف أقواله من الجلسة الأولى أو الثانية على أقصى تقديرٍ .. وربما من الدقائق الأولى من حديثنا .. ولكن كيف أكتشف

زيف شخصٍ موهوبٍ في الخداع إلى هذا الحد؟ موهوبٌ لدرجة أنه يندمج تمامًا في أكاذيبه ويتقمصها بواقعيةٍ تامةٍ وبصورةٍ تلقائيةٍ بل ويصدقها كأنه مر بها بالفعل ويقتنع بحدوثها، فلا يظهر على جسمه أي علامات أو إيماءات معتادة نميزها كأطباءٍ لدى الشخص الذي يتعمد الكذب .. كل إشارات لغة الجسد لديه ونبرات صوته كانت عفويةً إلى أبعد حدٍ وصادقةً تمامًا .. ولم يُظهر أي تناقضٍ ولو بسيطٍ في أيٍ مما حكاه رغم طول الجلسات يمكن أن أستشف منه عدم صدقه .. باختصارٍ.. كان مريضًا يتنفس كذبًا ..

جمعتُ شتات نفسي بصعوبةٍ .. استغرق الأمر دقائق لأستعيد قليلاً من توازني .. على الأقل أمامهم .. لم أجد حرجًا بعد أن كُشِفت كل الأوراق أن أتناقش معهم في حالته .. الكذب والتقمص أحد علامات اضطراب الشخصية المعروفة، تطورت غالبًا لديه من الطفولة نتيجة شعور بالنقص العاطفي أو عدم الأمان .. وربما لجأ لذلك دون وعيٍ كمحاولةٍ للتعايش مع واقعٍ يرفضه، أو لاكتساب التعاطف والاهتمام ممن حوله .. سيحتاج لوقتٍ طويلٍ للعلاج كي يتخلص من تلك الحالة .. صمموا أن يعاود زيارتي في أقرب فرصةٍ لاستكمال العلاج .. طلبوا مني مساعدته .. وألاَّ أتخلى عنه بالرغم مما سببه لي من متاعب .. ولم ينصرفوا قبل أن أعدهم بذلك.

سكتت قليلاً ثم اعتدلت في كرسيها وهي تقول: ذلك كل ما حدث .. فشلتُ تمامًا كطبيبةٍ ولا أخجل من الاعتراف بذلك .. ورغم إدراكي أن الهوس المرضي يصعب بالفعل اكتشافه لأن المصاب به يصدق تمامًا كذبه ويتمتع بدرجةٍ عاليةٍ من الذكاء اللغوي في الغالب، فتبدو أقواله متماسكةً للغاية بل وصادقةً تمامًا، لكن تلك الحقيقة لا تُبرر تقصيري .. وربما عزائي الوحيد أني دفعت ثمن فشلي غاليًا .. وأنصحكِ أن تتعلمي من الدرس القاسي الذي تلقيته .. أصعب تجربةٍ مررتُ بها في حياتي وأكثرها مرارةً.

ساد بيننا الصمت لبرهةٍ .. سألت صديقتي والدهشة ما زالت تتملكني: وهل قمتي بمواصلة علاجه بالفعل بعد كل ما حدث؟

ابتسمت قائلة:

- نعم .. استكملتُ علاجه .. ولكن بعد أن تحصَّلتُ أولاً على أجازة .. أطول إجازةٍ أقضيها بعيدًا عن العيادة والعمل .. أريح فيها أعصابى التالفة.

فرحات

كلما تذكرتُ فرحات، ارتسمت على وجهي ابتسامة عريضة دون وعيٍ، لكنها ابتسامة يغلفها الأسى.

كان حارسًا للمستشفى التي أعمل بها ..

جمعتنا هموم الغربة .. ومشاكل العمل، وعزلة تلك المنطقة النائية التي عملنا بها لسنواتٍ ..

عندما وصلتُ إلى المستشفى للمرة الأولى، استشعرتُ على الفور وطأة الندم .. كانت تلك أولى تجاربي في الغربة والتي لم أستعد لها جيدًا .. أحد زملائي قرأ الإعلان في الجريدة، وعندما علم بحاجتي الشديدة للمال نصحني بالتقدم للوظيفة .. ترددتُ في البداية قبل أن أتقدم بأوراقي أخيرًا.. أجريتُ مقابلةً دون أن يتواصل أحدٌ معي بعدها لفترةٍ طويلةٍ حتى نسيت. الأمر ب. برُمَّته .. قبل أن أتلقَّى اتصالاً مفاجئًا يفيد بنجاحي في المقابلة، وضرورة سفري خلال أسبوعين فقط لتسلُّم العمل .. ترددتُ طويلاً مع اقتراب موعد السفر، فكرتُ في التراجع عن خوض التجربة، لكن احتياجي الشديد إلى المال ألقى بي إلى أتون الغربة في النهاية.

أتذكر جيدًا أول ليلةٍ قضيتُها في المستشفى، وقتها تشاجرتُ معه .. في الواقع تشاجرتُ مع فرحات كثيرًا ولأتفه الأسباب في أيامي الأولي في الغربة؛ ربما لأني كنتُ حانقًا على الوضع بأكمله، أو بسبب أخطائه العفوية التي لم أتقبلها في البداية .. في تلك الليلة وصلتُ قبل الفجر بقليل.، لم يكن يعمل وقتها .. استقبلني حارس باكستاني ليقودني إلى سكن الأطباء .. اجتاحني شعورٌ بالرهبة على الفور بمجرد أن عاينتُ المكان الذي يقبع

في قلب الصحراء تمامًا، وأنا الذي لم أشهد في حياتي سوى المدينة بزحامها المزعج المعروف، واعتدتُ على ضجيجها الصاخب .. لم أنم ليلتها سوى بضعة ساعاتٍ محدودةٍ .. استيقظتُ إثر وخزٍ ثقيلٍ في كتفي .. فتحتُ عيناي بصعوبةٍ لأرى ظلاً ضخمًا يتجسد فجأةً أمامي، انتفضتُ فزعًا.. كان ذلك فرحات بجثمانه الضخم و زيه الرسمي الأزرق، وقد زاد منظره نفورًا في تلك اللحظة شاربه الكث، والابتسامة التي أفتر لها ثغره عن أسنانٍ متباعدةٍ صفراءٍ .. لا أعلم كيف تسلل إلى غرفة النوم .. أدركتُ لاحقًا أنه يمتلك مفتاحًا لكل غرف المستشفى بحكم عمله كحارسٍ للأمن .. توقف عن دفعي في كتفي بيده الثقيلة بمجرد أن استيقظتُ، وطلب مني بصوتٍ أجشٍ مقابلة المدير الذي ينتظرني في مكتبه في الدور الثاني .. قالها ببساطةٍ وكأنه لم يقتحم غرفتي للتو ويوقظني بقسوةٍ مبالغٍ فيها .. ارتديتُ ملابسي وأنا ألعنه وأسُب المدير .. توجهتُ إلى هناك لأجد المدير مشغولاً بمقابلة بعض العملاء فقررتُ استكشاف المكان .. ليزداد شعوري بالرهبة.

لساعةٍ كاملةٍ تجولتُ في المكان دون وعيٍ .. اكتشفتُ أن المستشفى تشغل مبنى متسع من طابقين على أطراف أحد المناطق السكنية شبه المأهولة .. أقرب مدينة تبعد عدة أميالٍ غربًا كما عرفت من أحد العمال .. معظم العاملين في المستشفي من الهنود، والأطباء من جنسياتٍ مختلفةٍ، ولا يوجد بينهما سوى اثنين من العرب؛ استشاري أطفال من سوريا، وطبيب عظامٍ من العراق، إضافةً إلى صيدلي مصري .. ولأن الهموم لا تأتي فرادى، اكتشفتُ أني الوحيد المقيم في سكن الأطباء الداخلي الملحق بالمستشفى .. لكل طبيبٍ هنا سيارته الخاصة التي تُمكنه من العودة إلى عائلته في المدينة بمجرد انتهاء فترة الدوام الرسمي .. وطاقم التمريض لديهم سكن خاص بعيد عن المستشفى ولا يقيم هنا سوى الحراس .. بعد التاسعة تخلو المستشفى تمامًا من العاملين، ولا يتبقى سواي والحارس الباكستاني، وبالطبع فرحات الذي يستلم مناوبته في الصباح ... قابلتُ

مدير المستشفى وطلبتُ منه البدء في العمل من الغد رغم إرهاقي، لعلي أتغلب على ذلك الشعور بالخواء الذى يستفحل بداخلي ..

لم يكن لقائي الثاني بفرحات أقل سوءًا من سابقه، في الواقع كان عاصفًا.. كنتُ أعمل من الثامنة صباحًا وحتى الثانية ظهرًا ، ثم أحصل على فترة راحة قصيرة قبل أن أعود للعمل مجددًا في الرابعة تمامًا وحتى انتهاء دوام المستشفي في الثامنة مساءًا .. اعتدتُ أن أحصل على قسطٍ من النوم أثناء فترة الراحة كي أستطيع مواصلة العمل لمناوبةٍ ثانيةٍ .. في ذلك اليوم استيقظت فزعًا على صوتٍ ما يناديني .. ما إن فتحت عيني حتى اصطدمتُ برؤيته .. ذلك الملعون يقتحم غرفتي للمرة الثانية رغم أني حذرته من مغبة تكرار الأمر .. نهضتُ غاضبًا.. أبلغني بصوتٍ لاهثٍ بضرورة تواجدي لمعاينة حالة خطيرة وصلت للمستشفى للتو.. تملكني غضبٌ أعمى لم أستطع كبح جماحه .. ذلك الأحمق .. ما الحالة الخطيرة التي يمكن أن تستدعي سرعة تواجد طبيب أسنانٍ بأي حالٍ؟ كنتُ مرهقًا للغاية ولم أفق بعد من آثار نومي العميق .. نهضتُ ثائرًا .. عنَّفتُه بشدةٍ.. تطلعتُ للساعة .. كانت الثالثة .. ازداد حنقي وأنا أرتدي ملابسي .. كان يمكن للمريض أن ينتظر ساعةً أخرى حتى بداية دوامي المسائي .. يومها صببتُ جام غضبي علي فرحات طوال الطريق لغرفة الكشف .. أعترف أني كنت قاسيًا عليه وقتها لكنه كان يستحق ذلك .. دخلتُ غرفة الكشف لأتفاجأ بطفلةٍ لا تتعدى العاشرة من عمرها تعاني من تورم مصحوب بألمٍ في الأسنان .. كان يجب أن تأتي قبل أن يستفحل الأمر، ولكن يبدو أنها طبيعة الناس هنا أيضًا إهمال الألم الخفيف حتى يستفحل .. لم أستطع التدخل مع وجود تورم، وصفتُ لها بضعة مسكنات ومضادًا حيويًا وطلبتُ منها أن تعاود زيارتي بعد ثلاث أيامٍ حين يقل التورم .. الغريب أن فرحات كانت تبدو عليه ملامح الألم والقلق الشديد وهو يشاهد معاناة البنت الصغيرة وكأنها ابنته، بل أنه اصطحبها بعد انتهاء الكشف لشراء الأدوية

بنفسه من صيدلية المستشفى وهو يداعبها طوال الطريق لعلها تنسي ألمها ..

لم يخفف من غضبي حالة البنت التي كانت تحتاج لتدخلٍ سريع بالفعل، أو أننا أبناء نفس الوطن .. فكنتُ أعامله بشكلٍ سئ كلما قابلته، لكن شعوري بالغضب بدأ يتضاءل لاحقًا.. بعد عدة أيامٍ من تلك الواقعة أنهيتُ عملي وتوجهتُ للسكن الداخلي لكني لم أستطع النوم .. انتابني أرقٌ شديدٌ .. ما زاد من الأمر سوءًا تعطل جهاز التكييف في الغرفة .. خرجت لاستنشاق بعض الهواء، لمحته يجلس أمام غرفته بجانب الاستقبال .. مررتُ أمامه، فهبَّ بفزع وقد ارتسمت على وجهه إمارات الحذر خوفًا من تأنيبي .. طلبتُ منه إصلاح المكيف فوعدني بإبلاغ عمال الصيانة صباحًا .. تحادثنا لساعةٍ .. وعندما عدتُ من عملي في اليوم التالي كان جهاز التكييف يعمل بصورةٍ جيدةٍ، وعلمتُ أنه شدد على العمال بضرورة إصلاح العطل، بل وتشاجر معهم لإنهاء الأمر دون إبطاءٍ، ولأن الغربة تحتاج لرفيقٍ، تصادقنا سريعًا، ولأنه أكثر خبرةً مني بأجواء الغربة حيث أوشك على إنهاء عامه الثاني هنا، فقد ساعدني في كثيرٍ من الأمور .. بفضله نجحتُ في استخراج رخصة قيادة بعد أن تولى تقديمي إلى مريض يعمل في إدارة المرور ليساعدني في إنهاء اجراءات الرخصة المعقدة .. بل أني تعرفتُ بفضله على أحد السائقين في المنطقة فكان يتطوع لاصطحابي إلى المدينة في نهاية كل أسبوع دون مقابل لشراء احتياجاتي .. أدركتُ أيضًا أنه طباخٌ ماهرٌ؛ اعتاد أن يرسل لي طعامًا كل فترةٍ بمجرد أن يشعر أن نفسي باتت تعاف طعام المستشفي .. وفي المساء كنا نسهر أحيانًا معًا .. وعندما كان النوم يجافيني، كنتُ أفتح النافذة لأراه يحرص على الصلاة مطولاً في الحديقة .. واكتشفتُ أن له صوتًا جميلاً بعد أن قمت بالصلاة معه أكثر من مرة ..

وعلى الرغم من طيبته الشديدة، لم أسلم كثيرًا من حماقاته .. ما زلتُ أتذكر عندما هرع يومًا إلى استراحة الأطباء وعلامات القلق البالغ ترتسم على وجهه ليطلب مني سرعة التوجه للكشف على حالة طارئة .. يومها توجهتُ لغرفة الكشف سريعًا لأتفاجأ بخُلو صالة الانتظار من المرضى .. غاب عني فرحات وقتها لعدة دقائق قبل أن يطرق الباب، ويدخل ممسكًا شيئًا ما بين يديه بحرصٍ .. وعندما سألته عن الحالة، فتح يديه لأتفاجأ بطائرٍ صغيرٍ .. وقتها كدتُ أن أثور عليه لكني امتنعتُ عندما وقع بصري على وجهه الذي ارتسمت عليه ملامح خوف طفولي .. تطلعتُ للطير الذي يبدو أنه كُسِر جناحه إثر سقوطه أو ارتطامه بشئٍ صلبٍ .. ثم إلي فرحات مُعاتبًا، ليردد بعفوية:-دي روح برضو يا دكتور.

ولفترةٍ طويلةٍ ظلت صورة فرحات بجسده الضخم وشاربه الكث مُمسكًا بين يديه بالطير الصغير وقد سرت ارتجافة في جسد كلٍ منهما؛ الطائر من الخوف وفرحات من القلق عليه، لا تفارق خيالي، وتنجح دومًا في رسم ابتسامةٍ على وجهي كلما تذكرتها .. يومها عالجتُ الطائر قدر خبرتي، واحتفظ به فرحات لفترةٍ حتى أمكنه الطيران مجددًا .. لكن فرحات لم يتغير، ويبدو أن نجاحي في علاج الطائر دفعه لاحقًا إلى أن يأتيني بكلبٍ صغيرٍ للكشف عليه بعد أن وجده يعاني بالقرب من باب المستشفى .. ورغم أني حاولت جاهدًا أن أوضح له أن هناك فارق ما، ربما يكون شاسعًا، بين الطبيب البيطري وطبيب الأسنان، لكن يبدو أنه لم يستوعب ذلك.

واستمر في أفعاله الغريبة التي كانت تثير دومًا الدهشة لديَّ .. كان يوصيني بشراء الحلوى كلما توجهتُ إلى المدينة، لأكتشف لاحقًا أنه يُوزعها على الأطفال الصغار في غرف الانتظار بالمستشفى، وربما دفع بكل ما في جيبه وقتها من نقود لشراء تلك الحلوى التي يرسم بها البسمة

على وجوه الصغار .. بل أنه كان يحاول تسلية بعضهم أثناء الانتظار ببعض الألعاب الصغيرة والأغاني التي يحفظها، مما هيأ له شعبيةً كبيرةً بين أطفال المنطقة؛ فما أن يضطر أحدهم إلى القدوم للمستشفى، سواء كمريض أو برفقة أحدهم، حتى يبادر بالسؤال عن (عم فرحات)، ليقضي معه وقتًا لطيفًا يظل أثره في ذاكرته طويلاً .. والغريب أني شهدتُ محاولة بعض الأهالي منحه قدرًا من المال عرفانا لما يقوم به، لكنه كان يرفض كل مرة بإباءٍ ولطفٍ .. لم أنسَ أيضًا تلك الليلة عندما لمحتُ ثعبانًا يسعى في الحديقة بينما كنت أتبادل الحديث معه، انتفضتُ فزعًا وقتها على الفور .. أسرع فرحات، فجلب فأسًا يحتفظ به لتهذيب الحديقة، لكنه لدهشتي لم يحاول قتل الثعبان، واكتفى بملاحقته بالفأس حتى تأكد تمامًا من تسلله خارج الحديقة بأكملها .. وعندما تطلعتُ إليه بغضبٍ وصدمةٍ اكتفى بهز رأسه قائلاً أنه لا يود قتل الثعبان دون أي ذنبٍ خاصةً أنه لم يُسبب له الأذى .. ولعدة أسابيع بعدها توقفتُ عن السهر معه في الحديقة.

لكن بالرغم من تلك التصرفات الغريبة، لم يكف فرحات عن إبهاري بمفاجآته الصغيرة التي تبعث في نفسي البهجة من وقت لآخر .. لم أنسَ ذلك اليوم الذي دعاني فيه لتناول الغداء، لأتفاجأ به وقد أعد (ملوخية) فاحت رائحتها في المستشفى، ولا أدري كيف جاء بها إلى هنا في الغربة .. لكني علمتُ لاحقًا أنه زرعها في حديقة المستشفى .. في الواقع لم ينسَ فرحات يومًا عمله الأصلي كفلاح، وحُب الأرض التي نشأ في خدمتها ولذلك سمعتُ أن أول ما قام به بمجرد أن استقر هنا هو العناية بحديقة المستشفى التي ضربتها يد الإهمال، ولم تنبت في تربتها القاحلة سوى الحشائش والأشواك .. بالطبع فشل في البداية خاصةً أن التربة هنا صحراوية تختلف تمامًا عما اعتاد عليه، قبل أن ينجح أخيرًا بمساعدة بعض العمال في زراعة عددٍ من النباتات والأشجار والتي غيرت مظهر الحديقة، وأضفت على المكان رونقًا وجمالاً .. ويبدو أنه أوصى أحد أقاربه

ممن يعملون معه في الغربة كي يحضر معه بعض البذور والنباتات من قريته لزراعتها وهو ما تم بالفعل لتبهرنا النتائج ..

مر العام الأول ببطءٍ، وما زلتُ بحاجةٍ لعامٍ آخرٍ قبل أن أحقق هدفي الذي سافرت من أجله .. في تلك الليلة لم أشعر بالنعاس، انعقدت سحب الهموم فوق رأسي فلم أستطع تفريقها، والشعور بالوحدة كاد يفتك بي .. افتقدتُ أهلي بشدةٍ، لأول مرة أقضي فترةً طويلةً تمتد لعامٍ كاملٍ بعيدًا عنهم .. وزاد من شعوري بالوحدة اقتراب عيد الأضحى .. لأقضيه هنا في الصحراء بعيدًا عن كل من أحبهم وأشعر بينهم بالدفء، ويبادلونني الشعور نفسه .. ليلتها خرجت لاستنشاق الهواء .. لمحتُ فرحات يروي الحديقة .. بمجرد أن رآني في ذلك التوقيت المتأخر حتى أقبل ليسألني إن كنت أعاني من مشكلةٍ ما لكني اكتفيت بهز رأسي دون إجابة .. دعاني لكوب من الشاي الثقيل المميز خاصته .. أنهى عمله في ري الحديقة أولاً، التفت إليَّ وهو يبتسم ابتسامة بانت معها أسنانه الصفراء مبررًا وهو يلهث:

- أصل الري بالليل أحسن في الصيف .. الشمس شديدة هنا في النهار وبتبخر المياه بسرعة .. ومهما رويت الصبح بتفضل الأرض عطشانة.

لم أعلق على كلامه وراقبته وهو يعد الشاي .. ناولني كوبًا وجلس مقابلي .. لوهلةٍ التزمتُ الصمت .. الشجن بداخلي كان أكبر من قدرتي على الكلام .. تركتُ له تمامًا دفة الحديث، فانطلق يثرثر في مواضيع شتى .. عندما وجد أني لا أتجاوب معه، وقد غرقتُ في همومي، زفر أنفاسه في حرارةٍ .. هاتفًا:

- هانت!

كانت تلك كلمته الشهيرة التي يلفظها دومًا كلَّما مر بموقفٍ صعبٍ هنا، يطلقها بصبرٍ وثقةٍ عاليةٍ، وكأنه يواسي نفسه ويشجعها على تحمل أي مشاقٍ .. سهرنا معًا.. حكيتُ له للمرة الأولى عن سبب غربتي .. كنت أريد فقط إنقاذ بيت العائلة الذي نشأت فيه بعد وفاة والدي ورغبة أخوتي في بيع البيت، لم يكن يهمني إنقاذ البيت نفسه بقدر مساعدة أمي والتي أعلم إلى أي مدى يتعلق قلبها بالمكان، وأي درجة من الألم يمكن أن يسببها مفارقتنا له .. لثوانٍ بعدها ساد صمتٌ ثقيلٌ بيننا .. التفتتُ لأسأله عن سبب مجيئه .. لكل مغتربٍ هنا سببٌ دفعه للسفر ومفارقة الوطن بكل تأكيدٍ؛ حلمٌ ما في العادة أو رغبةٌ يسعى إلى تحقيقها .. لم أشأ التطفل بسؤاله من قبل .. لم يجبني في الحال .. سكت لبرهةٍ، سرح ببصره بعيدًا، زفر أنفاسه ببطءٍ قبل أن يردد كلمته الشهيرة بصوتٍ خافتٍ تلك المرة: - هانت

لم أشأ أن أضغط عليه .. ربما يحلم بشراء قطعة أرضٍ .. أو بيتٍ صغيرٍ لعائلته .. لم أهتم .. يومها عدتُ لفراشي لأنام بعمقٍ لم أشهده حقًا من فترةٍ طويلةٍ.. من قال أن الثرثرة تريح القلب كان محقًا دون شكٍ.

تواترت الأيام سريعًا وأنا في غفلةٍ عن حسابها، بعد عدة أيامٍ وفي وقتٍ متأخرٍ أثناء أجازة أحد الأعياد استقبلنا حالة طارئة في المستشفى، لم يتواجد في المكان وقتها سواي وطبيب آخر عراقي وعدد من الممرضات، طفلٌ صغيرٌ لم يتعدى العاشرة من عمره مصابٌ بطلقةٍ ناريةٍ، يبدو أنه خرج للصيد مع أبيه فأصابته الطلقة بالخطأ .. ورغم خبرتي كطبيبٍ لكن الفزع تملكني، لم أتعامل من قبل مع حالات مماثلة .. عملتُ بجهدٍ مع الطبيب العراقي لإسعاف الولد الذي كانت حالته تتدهور سريعًا، يبدو أنه نزف لفترةٍ طويلةٍ قبل نقله للمستشفى .. كنا بحاجةٍ ماسةٍ لنقل دم، لكن ما زاد من الأمر سوءًا أننا لم نجد في بنك الدم بالمستشفى ما يطابق

فصيلته .. تواصلتُ مع المستشفى الرئيس في المدينة لإرسال أكياس دمٍ بصورةٍ عاجلةٍ، لكن حالة المصاب كانت تتدهور بسرعةٍ كبيرةٍ ونحن عاجزين عن مساعدته .. وقتها تدخل فرحات ليعرض التبرع بدمه .. قال أنه يمكنه التبرع لأي فصيلة دم، قالها بثقةٍ ويبدو أنه قام بذلك من قبل .. لم نجد حلاً في النهاية سوى قبول عرضه .. يومها أنقذنا الطفل بصعوبةٍ بعد أن أجرينا الإسعافات الأولية اللازمة، ونقلته سيارة الإسعاف الملحقة بالمكان إلى المستشفى المركزي لاستكمال علاجه هناك حيث التجهيزات أفضل .. كنا مرهقين تمامًا في نهاية اليوم .. ذهبتُ للاطمئنان على فرحات الذى عاد لعمله ببساطةٍ وكأن شيئًا لم يكن .. وفي الصباح أكَّد عددٌ من الأطباء القدامى في المستشفى بأنها لم تكن المرة الأولى التي يقوم فيها فرحات بفعلٍ مماثلٍ، مما زاد من تقديري له ..

بعد ثلاث أشهر من تلك الحادثة، طلب مني فرحات لأول مرة اصطحابه للمدينة بسيارتي الخاصة التي تمكنت من شراؤها في الفترة الأخيرة، قضى فرحات الوقت بأكمله داخل المدينة في ابتياع بعض الهدايا، وعندما عدنا كان مبتهجًا للغاية حتى أنه أعد عشاءًا دسمًا، كان سعيدًا للغاية، لم أره من قبل في تلك الحالة من البهجة .. بعد العشاء أردتُ سؤاله عن سر تلك السعادة المفاجئة لكني تراجعت خوفًا من التطفل عليه .. لكنه أبلغني بالسبب من تلقاء نفسه ونحن نرتشف الشاي، فعلمتُ منه أنه على وشك العودة للوطن بعد أن نجح في تحقيق هدفه هنا.

- أخيرًا!

نطقها بارتياحٍ وسعادةٍ شديدةٍ وهو يخبرني أنه مع نهاية الشهر الحالي سيتمكن أخيرًا من جمع مبلغ من المال يكفيه لتحقيق الهدف الذي سافر من أجله .. كنتُ سعيدًا من أجله .. طوال حياتي لم أرَ أطيب من فرحات وبالتأكيد سأفتقده بشدةٍ عندما يغادرنا، لكني أشعر بالراحة في الوقت نفسه لأنه سيكون سعيدًا .. تحادثنا طويلاً بعدها .. تلك المرة لم أستطع

كبت فضولي .. سألته عن سبب حاجته للمال الذي تغرَّب من أجله .. ويبدو أن سعادته دفعته للتخلي عن تحفظه .. سكت قليلاً .. أطرق برأسه للأرض حتى ظننت أنه لن يتكلم .. ارتسمت ابتسامة شاحبة على وجهه .. رفع بصره قبل أن يقول:

- كنت عاوز أجمع فلوس علشان أشتري سلاح آلي .. وقرشين أسيبهم للعيال للزمن.

لوهلةٍ لم أرد .. لعله يمزح أو لم أسمعه جيدًا .. لكنه واصل مصارحتي بهدوء بأنه ينوي شراء سلاحٍ آليٍّ للأخذ بثأره .. لم تعد الأسلحة التقليدية تُرضي طموح من يرغب في الثأر، كما أن خصمه حذر للغاية وينتمي لعائلة ذات ثقل ويجيد حماية نفسه، وثمن السلاح غالٍ في قريته ولهذا سافر.. منذ وطأت قدماه أرض الغربة وهو لا يحلم سوى بتلك اللحظة التي يعود فيها للوطن ويفرغ طلقات سلاحه في جسد خصمه، ويعود ليمشي مرفوع الرأس مجددًا .. بمجرد أن تحصَّل على ثمن السلاح وقطعة أرض صغيرة ينوي أن يبتاعها لعائلته لتأمين مستقبلهم حتى قرر العودة .. انتهى فلم أعلق والتزمتُ الصمت .. انتابتني مشاعر متناقضة .. استرجعتُ دون وعيٍ كل ما أعرفه عن فرحات، وكل المواقف التي جمعتنا معًا خلال الأشهر القليلة الماضية .. انعقد لساني تمامًا من الصدمة، ولبرهةٍ عجزتُ عن النطق، فأطرقت إلى الأرض، ويبدو أنه أدرك ذلك فتوقف عن الكلام وهو يزفر أنفاسه ببطءٍ.

وجدتُ نفسي أرفع بصري لأتطلع إليه بعد ثوانٍ .. كان جادًا للغاية، في عينيه تلتمتع نظرة حماس وإصرار لا يلين، بينما تعكس ملامح وجهه علامات قسوة وغل دفين لا تخطئها العين ولم أرها من قبل .. كان أمامي وقتها شخصٌ آخر .. شخصٌ مختلفٌ تمامًا عن فرحات الذي طالما عهدته.

وجدتُ نفسي أرفع بصري لأتطلع إلى وجهه بتساؤل بعد ثوانٍ، كان جادًا للغاية، في عينيه تلتمتع نظرة تحدي، بينما يعكس وجهه مزيجًا من انفعالاتٍ شتى؛ حماس شديد وارتياح وقسوة، وعلامات غلٍ دفينٍ لا تخطئها العين ولم أرها من قبل .. كان أمامي وقتها شخصٌ آخر .. شخص. مختلفٌ.

خوف

كسب سعيد الرهان كالعادة ..

اتفقنا أن نحاول إثارة فزعها ..

دبرنا الخطة جيدًا .. وضعنا الثعبان داخل حقيبتها ..

طلبنا منها أن تأتي بقلمٍ من الحقيبة ..

بمجرد أن فعلت وخرج الثعبان في يدها، حتى طوحت به بعيدًا على الفور وهي تتراجع ..

لكنها لم تفزع مثلما فعل كل من كان بجوارها وقتها ..

ولم ننجُ لعدة أيامٍ من عقابها الثقيل ..

تلك اللعينة ..

من صغرها كانت مختلفةً عن كل أطفال عائلتنا والحارة .. وربما باقي أطفال العالم أيضًا

جدتي تزعم أن زبيدة لا تعرف معنى الخوف ..

وكأنها وُلدت دون تلك الغريزة عكس البشر ..

أو لعلها نجحت في ترويض الخوف فلم يعد يُثقلها .. وتحررت للأبد من سطوته ..

تأكدنا أن جدتي محقة مع مرور الأيام ..

لم نرَ مثيلاً لزبيدة ..

لم تكن تخاف بالفعل .. على الأقل مثل باقي الأطفال.

ربما بسبب نشأتها الأولى في مخيماتٍ يمرح فيها الخوف والمرض والفقر وفرص الموت فيها أكبر من الحياة ..

أو بسبب والدها العسكري السابق الذي يتغنى الجميع ببطولاته .. ربما ورثت منه صرامته وشجاعته النادرة ..

أو لعله النضج المبكر هو السبب؛ كونها الأخت الأكبر والمسئولة عن عائلةٍ كبيرةٍ من صغرها، خاصةً بعد وفاة والدها المبكرة ..

لا أحد يعلم على وجه التحديد ..

عمي يقول أنها بلهاء .. منذ اليوم الأول الذي جاءت فيه لخدمتنا وهو يؤكد ذلك .. لهذا لا يدرك عقلها معنى الخوف ..

لكن ما علاقة الخوف بالعقل ..

كثيرٌ من البلهاء يخافون مثلنا، وربما أكثر ..

كما أنها لم تكن بلهاءًا ..

وتفوقها في كل مراحل الدراسة من قبل، وحتى قصف مدرستنا وعدم قدرتها على السفر معنا لمدرسة القرية المجاورة لمواصلة تعليمها، يشهد على ذلك.

عمتي تزعم أن صدمة وفاة أبيها بين يديها بعد قصف المخيم، أكسبها جرأةً غير معهودةٍ.. ونزع للأبد الخوف من قلبها .. وربما مشاعر أخرى ..

لكني أشك في ذلك .. لم تكن الوحيدة التي تعرضت لصدمةٍ عنيفةٍ كتلك .. وكثيرٌ من أهالي القرية فقدوا أحبةً بين أيديهم وتحت أعينهم جرَّاء القصف

الشرس من وقتٍ لآخرٍ دون أن يغادرهم الخوف بعدها .. بل ربما زادت سطوته عليهم

تحول الأمر مع مرور الأيام على أي حالٍ إلى مادة للتندر .. ثم رهان خاص بيننا ..

في المرات القليلة التي زرت فيها جدتي حيث تعمل زبيدة، حاولنا إثارة فزعها بكل الطرق دون جدوى، مما جلب سخطها علينا ..

لكننا كنا نحرص أن نصالحها سريعًا كل مرةٍ.. وفي اليوم نفسه.

رغما عنًا نفعل ذلك .. ليس فقط كي نُفلت من عقابها، ولكن لأننا كنا نحتاجها حقًا

عندما تُسهب جدتي كالعادة في سرد حكاياتها المخيفة، والتي لا تجد لذة في روايتها إلا قبل أن نأوى إلى الفراش، لم يكن يطاوعنا النوم إلا بصعوبةٍ ونحن نستعيد طوال الليل كل تلك التفاصيل المرعبة والتي يزيدها خيالنا فزعًا .. حريصين أن نبتعد عن النوم قرب حافة السرير قدر الإمكان، حيث يمكن لأحد تلك الوحوش المفزعة التي تصفها جدتي أن تعود للحياة وتقتنصنا بسهولةٍ، وتظل حواسنا تعمل كراداراتٍ ليليةٍ لا تتعب لالتقاط أي حركةٍ تُهدد سلامتنا، ونفزع بشدةٍ من أقل صوت وحركة

بينما تغُط زبيدة في النوم بعمقٍ في الصالة الكبيرة المظلمة .. بمفردها

وعندما تُحاصرنا آلام المثانة في آخر الليل بصورةٍ لا يمكن تحملها، ولا نجد مفرًا من الذهاب إلى الحمام في الطرف الآخر من المنزل .. نضطر أن ننادي عليها حتى تستيقظ لتصطحبنا إلى هناك، رغم أنها أصغرنا عمرًا ..

ونخجل في الصباح التالي من ذكر ذلك ..

حتى الكبار كانوا يستغلون شجاعتها من وقتٍ لآخرٍ ..

عندما يمرح فأر أو صرصار في منزلنا ويثير ضحكي وأنا أرى فزع أمي ونساء العائلة، بل وفرارهن من المنزل بأكمله أحيانًا .. كانت هي من تتصدى للأمر ..

وعندما ترغب جدتي في شراء بعض التوابل، ترسل زبيدة والتي لا تهاب عبور تلك المنطقة الخربة التي تتكاثر فيها الكلاب الضالة، والتي طالما أفزعت المارة بل وعقرت بعضهم، في طريقها إلى الطرف الآخر من قريتنا حيث أفضل محل للعطارة لدينا.

تؤكد أمي أن زبيدة مجنونة ..

في الواقع بعض تصرفاتها تثبت ذلك ..

عندما تزأر طائرات العدو في سمائنا من وقتٍ لآخرٍ، تجلب معها الهلاك، ويُلقي الخوف بظلاله الثقيلة على الجميع، ونشهد البيوت تُهدم فوق رؤوس قاطنيها .. لم تكن زبيدة تفزع أو تهرب، ولم تحاول ولو لمرةٍ أن تتحصن بالقبو كما كنا نفعل .. حتى أنها رفضت في أحد المرات أن تهرع معنا للقبو رغم قصف البيت المجاور لنا تمامًا، مصممةً أن تستمر في المطبخ تؤدي عملها كما اعتادت، بحجة أن الطعام على النار ولا ترغب أن يحترق ..

وعندما اقتحم العدو قريتنا، كانت هي أول من يقف في طريق آلياته، وسلاحها لم يكن سوى حجارة الأرض .. بل صفعت جنديًا ذات مرةٍ وهو يحاول تفتيشها لتنجو بصعوبةٍ.

تصرفاتٌ لا تصدر إلا من مجنونة .. لكننا لم نكن نراها كذلك.

ولسنواتٍ طويلةٍ ظلت تُحيرنا دومًا بتصرفاتها.

كبرتُ وغادرتُ القرية لاستكمال دراستي الجامعية، لكني كنتُ أسمع عن بطولاتها كل مرةٍ أعود إلى أحضان عائلتي ..

لم تكن تخاف عبور الحدود وقت الانتفاضة لجلب المؤن اللازمة لقريتنا، أو اجتياز المعابر بحمولتها الثقيلة من الأغراض حيث التوتر الزائد قد يدفع جنود المعابر لإطلاق النار على أيٍ منا لمجرد الشك، أو للترفيه أحيانًا ..

ولم تتورع عن مساعدة بعض المجاهدين ممن احتموا بقريتنا، وتوصيل الملابس والطعام إليهم رغم المخاطر، وكادت تفقد حياتها بالفعل بعد أن أصابتها رصاصةٌ إثر مداهمة قوات العدو لأحد مقار المناضلين وهي هناك، وحُكِم عليها بالسجن لثلاث سنواتٍ .. كنتُ حاضرًا يوم محاكمتها .. وأكاد أزعم أنها لم تجفل لحظة صدور الحكم عليها .. لتخرج بعدها وتعاود نشاطها بشكلٍ أكبر من السابق وأكثر جرأة كأن شيئًا لم يكن ..

وعندما ماتت والدتها في مستشفى المدينة وتعذَّر الدفن بسبب القصف، لم تشأ أن تتركها بمفردها، وقضت الليلة بأكملها في المشرحة المكتظة بجوار جثة أمها .. وعندما قامت بدفنها أخيرًا، لم تشأ أن تتركها تقضي ليلتها الأولى في القبر بمفردها، فسهرت بجوار قبر أمها حتى الصباح .. فقط لتؤنسها.

وعندما ماتت أم سلمان، لم تتورع أن تحل محلها، لتتطوع بغُسل موتى قريتنا من النساء .. ودون أجرٍ .. مما عزز من أسطورتها لدينا.

عدتُ للقرية أخيرًا بعد تخرجي بسنواتٍ لأتولى قضايا الناس هنا ..

تزوجت زبيدة أحد زملائي القدامى ..

زادت أواصر صداقتنا مع الأيام ..

ولم تتوقف يومًا عن إبهاري بصلابتها .. وإثارة دهشة الجميعة لجرأتها النادرة

ثم توالت السنوات سريعًا .. وبدأتُ أشهد شيخوختي وشيخوتها.

شاب شعرها وزادت صلابتها مع الأيام .. بقيت وحدها في منزلها الكبير بعد وفاة زوجها .. المنزل الذي اختارت إقامته بجوار المقابر رغم تحذيرات البعض لها، تمامًا بجوار معظم أسرتها الراقدة هناك .. ودون خوفٍ من اللصوص ممن ينشطون بجوار المقابر وعلى حدود الصحراء المتاخمة لها ..

ها هي ذا تطوي السبعين من عمرها .. المثال الذي طالما حيرنا، والأسطورة التي تناقلت الألسن كثيرًا سيرتها .. ما زالت كما هي، لا يضايقها فقط سوى تلك الكوابيس الحمقاء التي باتت تنتابها كل ليلةٍ رغم قلة نومها .. وترى فيها ابنها الوحيد وقد اغتاله العدو بعد أن قبض عليه من عدة أشهرٍ لانضمامه للمجاهدين.

تقضي طوال ليلها في رعبٍ، وإن تظاهرت أمام الناس بالعكس .. ينتفض قلبها حقًا مع وقع أي أقدامٍ تقترب من منزلها، وتفزع من أي صوتٍ .. تخشى أن يأتي أحدهم بخبرٍ سئٍ عنه قد لا يُمكنها تحمُّل آثاره ..

وتتمنى فقط أن يأتي يومها قبل يومه .. ولا تتوقف عن الدعاء بذلك ليلاً ونهارًا.

على الأقل ترتاح للأبد من ذلك الضيف اللعين الذي بات يسيطر على حياتها لأول مرةٍ، ويُلازمها طوال الوقت في الأيام الأخيرة فلا يكاد يتخلى عنها .. ذلك الشعور الجارف بالخوف.

موهبة

عندما حاولتُ تقليد أخي فرسمتُ مثله على جدران منزلنا، عاقبني أبي بخصم جزءٍ كبيرٍ من مصروفي مما أثار دهشتي .. أخبرتني أمي لاحقًا أني لستُ موهوبًا في الرسم كأخي، وأن كل ما فعلته في النهاية هو تشويه الجدار ..

أخبرتني أيضًا أن لكلٍ منا موهبةً مختلفةً يتفرَّد بها، وأن عليَّ اكتشاف تلك القدرة الخاصة التي أتمتع بها حقًا .. فكرتُ كثيرًا دون أن أصل في النهاية إلى معرفتها .. لم أكن أعزف على البيانو بشكلٍ رائع كما يفعل ابن عمي، أو أتفوق في أي رياضةٍ حقًا كما هو حال بعض أصدقائي.. لا أحب المدرسة ودرجاتي في المواد كلها متوسطة؛ لهذا استبعدتُ أن أكون موهوبًا في مادةٍ ما .. كما أن صوتي غير جميلٍ، ولا أحب القراءة أو الكتابة بأي حالٍ..

ربما أمتلك موهبةً حقيقيةً في لعبة القتال، تلك التي أعشقها على جهاز الأيباد، لم يهزمني أحدٌ فيها من قبلٍ .. أو التهام الآيس كريم بكمياتٍ ضخمةٍ مهما كان مُثلجًا، أو تدبير المقالب في معلمة الرياضيات .. كما أني جيدٌ للغاية في إزعاج كلب جارنا؛ يكفي أن أقف أمامه دون أن أفعل شيئًا ليثور، بينما لا يفعل ذلك مع باقي الأطفال .. رغم أني توقفتُ عن رميه بالحجارة من فترةٍ طويلةٍ ..

لكن لا أعتقد أن أيٍ من تلك القدرات يمكن أن تُثير الإعجاب والتقدير، أو يُصنفها الناس يوم. ا تحت خانة المواهب، وبخاصةٍ الناس من حولي ..

عندما يأستُ من اكتشاف موهبتي، وصارحتُ أمي بذلك حانقًا، ابتسمت وهي تؤكد أن معظم مواهب البشر بسيطة ولا تكاد تلفت النظر .. كأن تكون موهوبًا في تنظيم الأشياء، أو رعاية الآخرين والاستماع الجيد إليهم، أو توصيل أفكارك بأقل قدرٍ من الكلمات .. أو حتى الاستماع إلى الموسيقى أو قراءة كتابٍ بعمقٍ أكبر من المعتاد قد لا يصل إليه معظم الناس ..

لكن حتى تلك الأشياء البسيطة لم أكن أجيدها ..

لم أحقد على الموهوبين من حولي رغم ذلك ..

ربما لأني كنت أستفيد منهم بصورةٍ أو بأخرى ..

أعتدتُ أن أستغل موهبة صديقي حسام في الرياضيات ليساعدني في حل الواجب، خاصةً أن عصا المعلمة لا ترحم، وذلك مقابل أن أسمح له بركوب دراجتي الجديدة من وقتٍ لآخر .. وأقنعتُ ابن عمي باللعب دومًا في فريقي، خاصةً أنه موهوبٌ للغاية في كرة القدم، فكُنا نفوز على أي فريقٍ بسهولةٍ .. واستفدتُ من براعة سعيد في تسلق الأشجار للحصول على ثمار التوت اللذيذة تلك التي أعشقها .. أما أخي؛ فكنت أطلب منه القيام بالرسومات الخاصة بالمشاريع المدرسية التي أقوم بها، وعندما يرفض أشكو لأمي، فتهدده بالحرمان من المصروف إن لم يساعدني .. لهذا كانت كثيرٌ من مشاريعي تخرج بصورةٍ جيدةٍ ..

ورغم أني انخرطتُ في السنوات التالية في عددٍ كبيرٍ من الأنشطة، لكني لم أكتشف أي قدراتٍ خاصة لديَّ، ولم أميل إلى أيٍ منها، دون أن أهتم كثيرًا بذلك.

حتى أني التحقتُ بكلية التجارة دون تفكيرٍ طويلٍ، فقط لأن كثيرًا من زملائي بها ..

ورفضتُ القيام بأي نشاطٍ داخل الجامعة طوال فترة دراستي، ربما لأني لا أجد نفسي في أيٍ منها، وحتى لا أتعرض للإحراج بسبب نقص كفاءتي ..

نجحتُ في الأعوام الأولى بصعوبةٍ .. وفي عامي الأخير أقنعني صديقي مدحت بالعمل معه في تلك الجريدة فلم أعترض، خاصةً أن العمل لا يتطلب سوى بضع ساعات محدودة كل يومٍ، ومقر الجريدة بجوار منزلي .. أجريتُ مقابلاتٍ وزرتُ أماكن عدةٍ وتعرضتُ لكثيرٍ من المضايقات في سبيل القيام بعدة تحقيقات ميدانية بسيطة، يصوغها مدحت في النهاية بأسلوبه الرائع، خاصةً أنه موهوبٌ في الكتابة .. اكتسبتُ خبرةً جيدةً لكني وجدتُ أن العمل في قسم التحقيقات مرهقٌ ولا يناسب قدراتي .. لذا عندما انتقل مدحت إلى قسم الرياضة، انتقلت معه دون ترددٍ، خاصة أن العمل بها أسهل بكثيرٍ.

واصلتُ العمل في الجريدة لعدة سنواتٍ بعد التخرج .. ظننتُ أن الأمر سينتهي بي كمحررٍ بسيطٍ في قسم الرياضة إلى الأبد، حتى كتبتُ يومًا عن لاعبٍ موهوبٍ صغير السن بعد متابعتي له، وتوقعتُ له مستقبلاً كبيرًا وأن يطرق أبواب الشهرة سريعًا، وهو ما تحقق بعد فترةٍ قصيرةٍ، ثم أجريتُ مقابلةً لاحقًا مع اللاعب، لتتوثق صلتي به .. وزادت أواصر الصداقة بيننا بعد أن دافعتُ عنه عندما هاجمه البعض بسبب انخفاض مستواه لفترةٍ ليست بالقصيرة، قبل أن يعود للتألق مجددًا .. وبفضل صداقتي مع اللاعب، تعرفتُ تدريجيًا على عددٍ آخر من أشهر اللاعبين وتوثقت علاقتي بهم، بل وأجريتُ معهم عددًا من المقابلات مما أكسبني بعض الشهرة .. لكني افتقدتُ الحماس في النهاية، فلم أكن موهوبًا في الكتابة على أي حال .. لذا بمجرد أن عرض عليَّ أحد أصدقائي وظيفةً في شركة توكيلات خاصة، حتى وافقتُ دون تفكيرٍ ..

عملتُ في الشركة لعدة أِشهرٍ لم أحقق فيها نجاحًا كبيرًا، حتى أني فكرتُ في ترك العمل .. استمرت صداقتي خلالها مع اللاعب، وعندما تكررت

شكواه من وكيله الذي يطالب بنسبةٍ كبيرةٍ من كافة تعاقداته، حتى عرضتُ عليه الاستعانة بخدمات الشركة التي أعمل بها، ولدهشتي وافق سريعًا .. ولأني أجيد الحسابات بحكم دراستي، والتفاوض بحكم عملي .. تمكنتُ من الحصول لصديقي على قيمةٍ أكبر عند تجديد عقده مع ناديه، بل نجحتُ في التعاقد مع شركة دعاية ضخمة ليظهر في عدد من الإعلانات الخاصة بها مما وفر له مبالغًا كبيرةً .. ونتيجةً لنجاحي مع اللاعب، وتوصياته لعدد من زملائه في الفريق، تمكنتُ من الحصول على توكيل عددٍ آخر من اللاعبين، وتوسعت علاقتي تدريجيًا بهم .. مع مرور السنوات بدأت أكتسب شهرةً في الوسط الرياضي، وأحقق نجاحًا كبيرًا .. زاد ضغط العمل كثيرًا فلم أكن أعود للمنزل إلا مرهقًا ونصف نائمٍ .. لم أرفض حضور أي مناسبة. دعيتُ إليها، وحافظتُ على علاقتي جيدةً مع الجميع، بل وتعرفتُ على عددٍ من كبار الفنانين من أصدقاء اللاعبين ووثقتُ صلتي بهم، ونجحتُ في ضم بعضهم إلى قائمة عملائي .. وبدأتُ أترقى قليلاً في عملي ..

بعد سبع سنواتٍ، دفعني نجاحي أخيرًا إلى الطمع في تأسيس شركتي الخاصة، ورأيتُ الوقت قد حان لأعمل باستقلاليةٍ وأتمتع بحريةٍ أكبر في تنفيذ أفكاري .. اتهمني كثيرون بخيانة الشركة التي عملت بها، خاصةً بعد أن نجحتُ في اجتذاب كثير من عملائي السابقين إلى شركتي الجديدة، لكني لم أهتم .. حافظتُ على نجاحي في سوقٍ متقلبٍ رغم تراجع معظم الشركات المنافسة، ربما بسبب حرصي الشديد على اختيار كل موظفٍ في الشركة بنفسي، وبقدر عالٍ من الدقة .. نجحتُ خلال سنواتٍ قليلةٍ في جمع فريق من الموهوبين حقًا للعمل بالشركة في كل المجالات؛ الدعاية والتسويق والتدقيق المالي وحتى الشئون القانونية .. وبفضلهم توسعت أعمالي، واجتذبت الشركة مع مرور السنوات كثيرًا من الفنانين والمشاهير من مختلف المجالات .. لأقرر اقتحام سوق العمل ببطءٍ وحرصٍ شديدٍ في مجالات أخرى ..

ها أنا ذا بعد أن تجاوزتُ الخمسين بعدة أعوام، أمتلك أكبر شركة توكيلاتٍ في البلد .. وأملك حصةً كبيرةً في مسرح خاصٍ داخل العاصمة يعرض باستمرارٍ أعمالاً لنخبةٍ من أفضل الموهوبين، وقاعة مناسباتٍ شهيرةٍ نجحت في التعاقد مع أشهر المطربين للعمل بها، وأملك حصصًا أصغر في معرضٍ فنيٍّ وقاعة سينما، بل وشاركتُ في إنتاج فيلمٍ مؤخرًا حقق نجاحًا كبيرًا .. وبات يتردد اسمي في كل مكانٍ مقرونًا بعددٍ كبيرٍ من المشاهير .. بعد إعادة التفكير في كل ما حققته، أدركتُ بعد كل تلك السنوات، أني لم أكن موهوبًا حقًا في أي مجال، ولا أخجل من الاعتراف بذلك .. ربما باستثناء مجالٍ واحدٍ فقط كما اكتشفتُ متأخرًا ..

لعلي كنتُ موهوبًا حقًا في استغلال مواهب الآخرين وما يتمتعون به من قدرات .. وإلى أقصى حدٍ ممكنٍ.